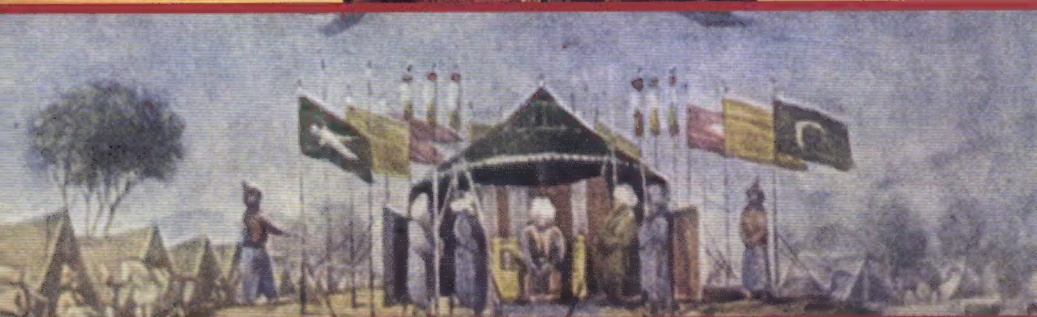


رواية
حُلمًا كما في واقعا حصار
قصة مؤسس الدولة العثمانية



صَلَّى عَلَى

كَافَّةِ النَّبِيِّينَ

خُلد الكاهن وراقعاصار

فصل مؤسس الدولة العثمانية

...انتهى حديث أَدْبَالِي وعثمان غازي في ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن خلد عثمان إلى النوم ظهر له في رؤياه هلالٌ خرج من جِبر الشيخ أَدْبَالِي، ثم استحال بدرًا، بعدها تواري في صدره، وما لبثت شجرة بلوط أن نبتت في حجره، وراحت تكبر، وتخضوضر تدريجيًّا فامتدت ظلال أغصانها في القارات الثلاث، وانقسمت ستّة أغصان غطّت البحار واليابسة، وصارت جبال القوقاز وطوروس وأطلس أعمدة تشد من أزرها، وثمة أنهار عظيمة تتلاطم عند جذورها؛ وفيها تجري "دجلة" و"الفرات" و"النيل" و"طونة" وتتدفّق...

فاستيقظ عثمان متصبيا عرقًا لعظمة ما رآه، وقص على أَدْبَالِي ذلك تفصيلًا، فكان يصدقه هازًا رأسه... عثمانُ هذا الفتى العشريني أغرق شيخه أَدْبَالِي في عوالم مختلفة... فبشّره أَدْبَالِي مبتسما بعد صمتٍ برهة:

- بُنِي عثمان، أبشر؛ لقد منّ عليك ربّ العالمين وذريّتك بالسلطنة والحكم، بارك الله فيك وفيها؛ ستؤسس دولة عظيمة تشمل حدودها القارات الثلاث الكبرى والبحار...

حُلُمًا كَانَ وَاقِعًا صَارَ

قصة مؤسس الدولة العثمانية



حُلْمًا كَانَ واقِعًا صار

قصة مؤسس الدولة العثمانية

Copyright©2014 Dar al-Nile

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

إسماعيل كاهار

مراجعة

يوكسل جلبتار - د. عبد الرازق أحمد

تصحيح

عبد الجواد محمد الحردان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع

2014/8854

ISBN: 978-977-618-317-9

رقم النشر

1001

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة، 22 جـ - جنوب الأكاديمية - النسيم الشمالي - خلف سينك - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع، ٧ في الترامكة - الحى السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

القاهرة - 2014م

حُلْمًا كَانَ وَاقِعًا صَارَ

قصة مؤسس الدولة العثمانية

تأليف:

صالح كُولَن

ترجمة:

د. أَمَانِي عَدْلِي



فهرس

٩	رؤيا عجية
١٣	مولد عثمان غازي
١٥	عربة الحمار
١٩	ويستمر الظلم
٢٥	تعليم عثمان الصغير
٣٣	شاب أسمر
٤٣	أن تكون كالسيد
٤٩	تعظيم القرآن الكريم
٥٣	الرؤيا أول بشارة للدولة العلية
٥٧	البشرى التي جاءت مع الرؤيا
٦٣	سيد شاب
٧١	الغارة الغاشية
٧٩	الأفتدة تحترق
٨٥	وفي الربيع تفتح الأزهار
٨٩	الحرب في "دومانيخ"
٩٧	القلب ينفطر
١٠٣	الارتحال إلى "سقاريا"
١١١	الاستعداد للحرب
١١٥	خطة مكرة
١٢١	استعدادات الزفاف

١٢٧	هدية العرس
١٣١	عرس غريب
١٣٧	الأميرة العروس
١٤١	فتح "إيتاكول"
١٤٥	القصر
١٤٩	ميلاد دولة
١٥٥	الفتوحات الجديدة
١٥٩	معركة "قويون حصار"
١٦٥	الخطر المغولي
١٦٩	اعتناق ميخال غازي الإسلام
١٧٥	وتمضي الأعوام
١٨١	اختيار السيد الجديد
١٨٧	أدبالي
١٩٣	الوداع
١٩٧	المصادر
١٩٩	الهوامش

ملحوظة:

أُلفت هذه الرواية التاريخية استنادًا إلى معلومات موثقة وردت في العديد من المصادر التاريخية، وقد تمّ التعريف بأسماء بعض الشخصيات والأماكن المهمة في هذه الرواية في نهاية الكتاب.



منمنمة تصوّر عثمان غازي مؤسس الدولة العثمانية

رؤيا عجيبة

تصَبَّب عرقاً أثناء نومه، رأى في حلمه موقداً كبيراً، موقد طعام يتطاير حوله الشرر...، كان عليه قدر كبيرة، سوداء مثل الليل...، وكانت النيران تزداد اشتعالاً والماء يزداد غلياناً في القدر، ثم فاض ماؤها...، وازداد فيضاً حتى غمر الأرجاء، وشكَّل بحيرة صغيرة في البداية، سرعان ما كبرت حتى صارت بحرًا وغطت الأرض جميعها.

استيقظ "أرتغرول غازي" (Ertuğrul Gazi) ^(١) من نومه متفضأً، ونادته زوجته السيدة حليلة:

- ما الأمر يا زوجي؟

- رأيتُ حلمًا يا سيدتي.

- وأنا استيقظتُ أيضًا على ركلات الطفل في بطني، نظرتُ فوجدتك تتصبب عرقاً، وتُردد قائلاً: "المياه، المياه..." ماذا رأيت؟

- لو تأذنين لي، أريد أن أحفظ به سرًا يا حليلة، ربما أرويه لك ذات يوم.

- كما تريد يا سيدي، هل ستهض؟

- نعم، وأصلي بضع ركعات.

- تقبل الله.

وبعد الصلاة كان أَرْطَغُزُولُ غَازِي يَفْكَرُ متسائلاً: تُرى إلَامَ تشير هذه الرؤيا؟ كان يجب أن يقصّها على أحد العارفين، خطرت بباله فكرة وأذان الفجر يتسلل إلى سمعه من الخارج... سيذهب بعد عدّة أيام إلى مدينة "قُونِيّة" (Konya) ^(١) لزيارة السلطان السلجوقي، وهناك يمكن أن يقصّ رؤياه على صديقه الحميم عبد العزيز مستوفي كاتب السلطان.

قبل أن يسافر إلى "قُونِيّة" ودّع رئيسُ قبيلة "قَايِي" (Kayı) ^(٢) عائلته، كان لديه طفلان؛ "كُونْدُوزُ" (Gündüz) ^(٣) و"سَارُوبَاتُ سَاوْجِي" (Sarubatu Savcı) ^(٤)، كان عمر ابنه الأكبر كُونْدُوزُ ست سنوات، وابنه سَارُوبَاتُ أربع سنوات، ثم جثا وأمسك كتفي كُونْدُوزُ.

- "كُونْدُوزُ أَلْب" (Alp) ^(٥)!

- ليلك أبي!

- أستودعك البيت في غيابي يا ولدي؛ فلا تُخَيِّبْ ظَنِّي.

- إن شاء الله يا أبي.

- حسناً يا بُنَيَّ، أنت شجاع.

ثم ودّع السيدة حليلة:

- اعتني جيّداً بنفسك وبالأولاد وكذا بجنيك.

حلّ الربيع في "قُونِيّة"، وكانت الطبيعة متشّية بميلاد جديد، لكن حال سلاجقة الأناضول كان سيّئاً جدّاً؛ فالعاصفة المغولية التي حلّت مع هزيمة "كُوسَه طَاغُ" (Kösedağ) ^(٦) قد جعلت الدولة العظيمة في حال يرثى لها؛ فالدولة العظيمة التي كانت تواجه الصليبيين بكلّ قوة في الماضي، صارت الآن تعيش آخر عصورها تابعة للمغول.

عندما رأى عبد العزيز مستوفي صديقه الحميم أَرْطُغُرُونُ غَازِي
لدى باب القصر فرح فرحاً شديداً، وبدأ الأخير يقص رؤياه على صديقه
الحميم في القصر المطل على المدينة بهضبة "علاء الدين".

- رأيتُ حلمًا يا صديقي، حلمًا يملك عقلي منذ أيام، لم أقصصه
على أحد وأردتُ أن أستشيرك.

- خيرًا إن شاء الله، ماذا رأيتُ؟

حكى أَرْطُغُرُونُ غَازِي رؤياه بالتفصيل...، شاهد عبد العزيز مستوفي
"قُوْنِيَّة" من نافذة القصر برهة؛ كانت "قُوْنِيَّة" قد التحفت باللون الأخضر،
ثم نظر إلى صديقه بوجه متبسم.

- أَرْطُغُرُونُ غَازِي، تعرف أنه لا يُعْمَلُ بالرؤيا وكذلك لا تُنْكَرُ،
ففيضان الماء إشارة إلى زيادة سلالتك، تنتظرك بشرى سارة يا أَرْطُغُرُونُ
غَازِي، سيولد لك ولد، وسيكبر، ومن يأتي من نسله سيكبرون ويحكمون
العالم في النهاية.

أضاء وجه أَرْطُغُرُونُ غَازِي، وأثناء عودته إلى "سُوْغُوْت" (Söğüt)^(١)
كانت تظهر على وجهه السعادة، فإن ذريته سيحكمون العالم، ولما وصل
إلى "سُوْغُوْت" بشر زوجته، وغمرتهما فرحة عارمة.

مولد عثمان غازي

بعد بضعة أشهر وضعت حليلة حملها، وحملت القابلات البشري
لـ"أزطغزول غازي"، وكان ينتظر الخبر على أحر من الجمر.

- أبشر يا سيدي، وُلد لك ابن آخر.

بدأ أزطغزول غازي يحمد الله، وبينما كان يقدم للقبالة الهدية، قال:

- كنتُ أعرف أنه سيكون لي ولدا!

عادت القبالة في حيرة غير قادرة على فهم قوله.

أقيم احتفال كبير لم يُز من قبل في "سوغوث"، يتصارع المتصارعون
في جانب، وتقام مسابقات الخيل في جانب آخر، ويحاول شجعان "قايي"
الشمر بذ بعضهم بعضاً في رمي السهام، لم يكن هناك أسعد من أزطغزول؛
فكان يشاهد المتصارعين ومتسابقِي الخيل ورماة السهام ويهتفهم...

على الجانب الآخر كانت النساء في عجلة لإيصال الطعام إلى
المآدب، وقد ملأت الأرجاء رائحة أشهى الأطعمة من القدور الساخنة،
وبجانب الأطعمة كان الخبز يخبز على صفيح ساخن، وانشغلت بعض
الفتيات بإيصال اللبن الرائب إلى الموائد المبسوطة على العشب.

كانت هناك أنواع من الأطعمة كالأرز باللحم، والعصائر، واللبن
الخثير، وحلوى الزردة...، كانت اللحوم المقلية تُلفّ بالخبز لتؤخذ
دهونها، ثم تُعاد إلى النار، وكما لا يبرد ما يخرج من النار كان يُلفّ
بالرقاق ويُوزع بين الموائد.

أمر أَرْطَغْرُولُ غَازِي أمرًا صارمًا بأن يكون ذلك اليوم يوم عيد
في "سوغوث"، وألا يبقى شخص حزينًا أو مستاء؛ كان هذا كله من أجل
السيد المولود حديثًا!

أذن أَرْطَغْرُولُ غَازِي في الأذن اليمنى وأقام في اليسرى، ثم قال:
"أسميك عثمان اسم الخليفة الثالث ﷺ للنبي ﷺ وأتمنى أن تنشئ دولة
كالتى رأيتها في رؤياي يا ولدي".

عربة الحمار

بدأت عشيرة "قايي" تقضي الشتاء في "سوغوث" والصيف في "دومانيچ" (Domaniç)^(٨) التي كانت هضبة جميلة في الغاب، ولوحة مدهشة صُنعت من ظلال أشجار الصُنوبر الضخمة، وكانت مكانًا تعلّم فيه عثمان صعوبة تسلق المرتفعات، وأنه كلما ارتفع رأى ما حوله بشكل أفضل.

بذل أَرُطغرُولُ غَازِي قُصارى جهده لاستكمال تعليم أبنائه؛ فكان عثمان الصغير يتلقّى دروس القرآن من الصباح إلى الظهيرة، ثم يتلو ما حفظه على والده، وكان أذكى كثيرًا من الأطفال الآخرين؛ إذ كان يفهم ويتعلم بسرعة.

كان تدريب السهام بعد الظهيرة حيث تهدأ حدة الرياح في "دومانيچ"؛ شاهد عثمان بإعجاب رمي الكبار، كانت سهامهم من الصنوبر وقد نُتبت بطرفها قطعة حديد تُحدث ثقبًا في دريئة جلد الحَمَل؛ أعجب عثمان بِحُضْبِ^(٩) الأقواس وهَزَجِ السهام.

حان وقت العودة من "دومانيچ" إلى "سوغوث"، تسير الخيالة في مقدمة القافلة وفي الخلف عربات تجرها الثيران...، قافلة هجرة طويلة يتبعها قطيع من الأغنام، والمعز، والحمير، والكلاب، وقد حملوا الأمتعة الثقيلة في عربات الثيران.

وصلوا "سوغوث" بعد رحلة استغرقت يومين، افتقد عثمان "سوغوث" كثيرًا لا سيّما عربة الحمار الصغيرة...، إنها عربة صغيرة ذات أربع

عجلات صنعها والده، وكان عثمان يغضب مَنْ يسميها عربية الحمار، ويقول: "هذه ليست عربية حمار، بل عربية حصان".

وفي الحقيقة كانت تلك العربية صغيرة بحيث لا يمكن ربطها بالحصان، بل يمكن أن تُربط بحمار مُسنٍ قصير القامة، كانت هذه العربية أثمن شيء لدى عثمان.

أراد عثمان أن تسير عربته بسرعة شديدة كسرعة حصان والده، بيد أن الحمار المسنَّ كان يسير كما يشاء، يمشي أحياناً ويقف أخرى، كان بطيئاً حتى إنَّ عثمان لم يستطع قيادة العربية سوى في المناطق الصخرية المكسوة بالعشب؛ لأن حماره عندما يجد خضرة لم يكن يتحرك من مكانه من دون أن يأكل العشب أمامه، وعندما ينتهي العشب يتحول إلى غيره، ويقف هناك ويأكل حتى يشبع تماماً، وعندما يشبع لا يرغب في السير ويغلبه النعاس؛ فكان تسير عربية الحمار هذه مهمة صعبة لعثمان مثل ركوب الخيل.

على الرغم من إصراره بشدة إلا أن والده لم يأذن له باصطحاب عربية الحمار إلى "دومانيچ"؛ فقد قال له: "متاعنا كثير وثقيل، ولا يمكننا حملها يا ولدي، عندما نعود إلى "سوغوث"، ستلعب بها".

في حين كانت القافلة تتقدم رويداً رويداً صوب "سوغوث"، كان عثمان يفكر في لعبته، ولحظة وصوله إلى بلده تسيربط الحمار بعربه ويبدأ اللعب.

بدت "سوغوث" من بعيد، لكن كانت هناك أمور غير طبيعية، عندما نزلوا إلى "سوغوث"، لم يروا سوى محروقات ورماد أسود، وقد أدركوا حقيقة الأمر بعد مدة وجيزة؛ فقد نُهب عند ذهابهم إلى الهضبة ما تركوه خلفهم من متاع وخيام، وسجاد، وطاولات النسيج، وآلات الحدادة، وأحواض النحاس، والقدور، وعدة لُجَم، وأحرقت أمتعة كثيرة.

ذهب عثمان فورًا إلى الخيام وبدأ يبحث عن عربة الحمار، لكن لم يستطع أن يجدها، كان اللون الأسود يغطي الأرجاء كلها؛ فيصعب عليه أن يجدها، ولما رُفعت المحروقات، ظهرت عربة عثمان أسفلها، لم يبقَ من العربة شيء سوى الحديد بين العجلتين؛ ذُهلَ عثمان من رآه؛ وبدأ يبكي بكاءً شديدًا... بعد مدة ذهب إلى والده، فوجده يتحدث مع أصدقائه الآخرين، قال أَرْطُغْرُولُ غَازِي:

- هذا من عمل "نِيقُولَا (Nikola)".

قال من حوله:

- فلنهاجم نِيقُولَا على الفور، ولنحاسبه على ما فعل.

تبسم أَرْطُغْرُولُ بمرارة وقال:

- هل نقوم بحملة؟ ألا تعلمون أن الحملة لا يقوم بها إلا الجيش؟

كيف نقوم بحملة وليس لدينا جيش منظم يا إخواني؟

أطرق الجميع برؤوسهم، عاجزين عن قول شيء، وكان عدد مقاتليهم لا يتجاوز المئتين، وهم يعلمون أنهم إن لم ينتصروا على أعدائهم، فسوف يلحق الأذى بجميع من تركوهم خلفهم من شبوخ ونساء وأطفال.

أَرْطُغْرُولُ غَازِي:

- سنصبر في الوقت الحاضر أيها الشجعان، ومن الآن فصاعدًا عندما نذهب إلى "دُومَانِيْج"، فلنرسل ما نتركه خلفنا إلى حاكم "بِلَچِيْكَ (Bilecik)"^(١)، وعند عودتنا نعطيه أجرة حفاظه على متاعنا.

كان عثمان يستمع بانتباه إلى والده، واصل أَرْطُغْرُولُ غَازِي حديثه،

قائلًا:

- أيتها الشجعان، لا تفقدوا أملكم، والله تعالى غالب على أمره، يوماً ما ستحاسبه على جرائمه.

عندما ذهب الكبار من حوله، نادى عثمان والده.

- أبي!

- تفضل يا بُني.

- عندما أكبر، هل يمكنني أن أحاسب نيقولا على هذا؟

- علام ستحاسب نيقولا يا بُني؟

- سأسأله: لماذا أحرقت عربتي؟

- لا تحزن! سأصنع لك عربة أخرى، لكن عندما تكبر اسأل نيقولا:

لماذا غدر بنا؟ ولماذا نهب متاعنا الذي صنعناه بجهودنا، ولماذا أحرقت الباقي منه؟

- أمرك يا أبي!

ويستمر الظلم

في العام التالي بدأت في أول أيام الربيع استعدادات الذهاب للهضبة، وضعوا الأمتعة الزائدة في الصناديق، واستعدوا لإيداعها في "بَلَجِيك"، وحملت الأمتعة الأخرى على عربات تجرها الثيران.

مع بهجة الربيع بدأت هجرة قصيرة من "سُوغُوث" إلى "دُومَانِيَج"، كانت الطبيعة والأزهار متعدّدة الألوان تحمل بهجة الحياة من جديد إلى الأرجاء كلّها، وكانت الزنابق وأزهار الخزامى البرّية وزهور البنفسج الجبليّة كأنها قبس صغير من جمال الخالق ﷻ.

عندما وصلوا مشارف "بَلَجِيك"، تركوا أمتعتهم في قلعة "دِيكَنيس" (*Digenis*) حاكم "بَلَجِيك"، تحدّث أَرُطُغُرُولُ غَايَري مع دِيكَنيس قائلاً:

- إذا حفظت أمتعتنا حتى نعود في الخريف، فإننا سنكافئك على هذا.

دِيكَنيس:

- لا تقلق - يا صديقي أَرُطُغُرُولُ - على أمتعتك؛ فإني أحافظ عليها عامين إن شئت، وأنا لا أحملها على ظهري، لكن عند العودة سأخذ في المقابل خمسمائة قطعة ذهبيّة وخمسين قربة من الزبد، وخمسين قربة من الجبن، وخمسة قطعان من الأغنام.

- تطلب نقوداً لأمتعة لم تحملها على ظهرك، وكأنك حملتها.

- كما تشاء يا صديقي العزيز، إذا شئت اترك أمتعتك ثانية في "سُوغُوث" وليتهبها نِقُولَا.

- إنك تأخذ كل شيء تطاله يدك، ليس لدينا ما نفعله، أنا موافق على غرضك.

لم يكن أَرْطُغْرُوُلُ غَازِي راضياً عن الاتفاق، لكن يبدو أن لا حل آخر. بعد أن تركوا حمولتهم في "بَلْجِيك" واصلوا طريقهم إلى "دُومَانِيچ" بجوار "تَحْتَه كُونُزُو" (*Tahta Köprü*)^(١١)، وبينما كانوا يمرون بالغاب، إذ بهم يسمعون صهيل الخيل في المقدمة ونباح كلاب الراعي.

مكانكم! إذا تحرك أحد من مكانه، فسنتلكم جميعاً!

قطع نِيْقُولَا حاكم "إِيْنَاكُول" ورجاله طريقهم، وحاصر ما يقرب من ثلاثمائة فارس من عشيرة "قَايِي"، حاول أَرْطُغْرُوُلُ غَازِي إقناع نِيْقُولَا، قائلاً:

- ليس لنا شأن بأحد، إننا ذاهبون إلى "دُومَانِيچ" حيث الهضبة.

- ذاهبون إلى "دُومَانِيچ"؟ علمت أنكم تركتم أمتعتكم في "بَلْجِيك" كي لا نسلبها!

- ...!

صاح نِيْقُولَا ضاحكاً:

- أنتم لم تتعلموا بعد أن لا مفر مني.

لم يتحمل عثمان وقاحة نِيْقُولَا أكثر من هذا، وبدأ يصيح من مكانه:

- سترى - يا نِيْقُولَا - عندما أكبر وأهزمك!

نثر رجال نِيْقُولَا كنانهم بعد أن سمعوا صوت عثمان واستهدفوه.

تدخل أَرْطُغْرُوُلُ غَازِي قائلاً:

- نِيْقُولَا، إنه لا يزال طفلاً، ماذا تريد؟

- أريد أغنامكم.

- خذ ما تشاء سوى الثُسولة.

بدأ عثمان هذه المرة يصيح بأعلى صوته مجدداً:

- كلا! إنها أغنامنا، لن تستطيعوا أخذها!

أعجب أَرْطُغْرُوزُ غَازِي كثيراً بشجاعة ابنه، لكن لم يكن الوقت مناسباً لهذا، كان مسؤولاً عن رعيته، وعليه ألا يُعَرِّض حياتهم للخطر؛ نادى ابنه الأكبر كُونْدُوزُ:

- كُونْدُوزُ، احمِ أخاك يا ولدي!

وبينما يتقدم نِيْقُولَا بالأغنام المنهوبة، كان عثمان يصيح بأعلى صوته من دون اكتراث بمحاولة أخيه الأكبر إسكاته:

- سترى يا نِيْقُولَا، سأحاسبك على كل ما تفعله هذا!

لم يكن من الممكن إسكات عثمان الصغير، كان نِيْقُولَا قد ذهب منذ وقت طويل، لكن لم ينتهِ سخط عثمان، وغَضِبَ من والده، كان يقول:

”لماذا أعطى الأغنام لقطاع الطرق؟!“

عندما وصلت عشيرة "قايي" إلى "دُومَانِيْج" لم تبقَ بأيديهم من الأغنام سوى النسولة، كان أَرْطُغْرُوزُ غَازِي مهموماً لما أصابهم من عجز؛ جلس وحيداً على صخرة، ونظر إلى الأفق، وقد بدا الحزن على وجهه، أفاق من شروده على نداء صديقه الحميم "آقْجَه قُوجَه" (Akça Koca) ^(١٢):

- أتأذن لي يا سيدي؟

- تعالَ يا آقْجَه قُوجَه، لا داعي للاستئذان.

- كيف حالك يا سيدي؟

- حالي كحال ذئب وقع في فخّ، لا حيلة لي، لا أدري هل هذه المصائب كلّها تلاحقنا بسبب عجزنا!

- كلا يا سيدي، أعلم أنك حزين بسبب قطع نيَقُولَا الطريق علينا وبسبب أغنامنا المسلوّبة إتاوة، وأعلم أيضاً أنك لا تريد أن تلقي بنا إلى التهلكة لضعفنا عسكرياً، فلا تحزن لهذا يا سيدي.

- إلى متى الحال هكذا يا آفَجه قُوجَه؟ هل تظنّ عشيرتي ذليلة هكذا في مواجهة حكام الروم؟ ماذا سنعطى لحاكم "بَلْجِيك"؟

- هل شاهدت شروق الشمس من "سِيُورِي قَايَا" (Sivri Kaya) يا سيدي؟

- لماذا تسأل؟

- لأنه قبل أن تشرق الشمس -يا سيدي- يغطّي ظلام حالك الأنحاء كلّها، يحلّ الليل على الأرجاء كافّة مثل جاثوم يخنق الناس، لكن سرعان ما ترسل الشمس نورها، ولا يعرف الظلام ماذا يفعل، ثمّ يطلع الفجر، وهذه المَرّة يحلّ ضوء أحمر على الأنحاء كافّة، ويبحث الظلام عن ثقب للهرب، ثمّ تشرق الشمس ولا يبقى أثر للظلام، وحالتنا هكذا -يا سيدي- لكلّ شتاء ربيع، ولكلّ ليل نهار.

- صحيح، لكن هذا أيضاً لا يثلج صدري أيّها الشجاع!

- سيدي، إذا كنّا قد فقدنا أغنامنا، فإننا سنربي أغناماً من جديد، وإذا كنّا قد فقدنا أموالنا، فسنعسب من جديد، سنوفرها ثانية، وإذا اقتضى الأمر فسنطلب المساعدة من الإمارات والعشائر الأخرى.

- نسأل الله أن يغنيننا عنهم، وألا تصل بنا الحال إلى هذا المستوى
يا آفِجَه فُوجَه!

- أرايتَ يا سيدي؟

- ماذا؟

- شجاعة سيد قبيلة "قايي" الصغير!

- أنقصد عثمان؟

- نعم يا سيدي، عثمان وهو لا يزال في هذا العمر، رأيتُ البرق
يلمع في عينيه تجاه نيقولا، ثم رأيتُ وصول يده إلى سيفه الخشبي، تنتظر
عشيرة "قايي" أيامَ مشرقة بإذن الله.

- إن شاء الله يا صديقي، إن شاء الله.

تعليم عثمان الصغير

كان تعليم عثمان مهمًا جدًا، وكان أَرْطُغْرُولُ غَازِي يود لو حصل ابنه على تعليم أفضل منه، فشاور رفاق الدرب في هذا الشأن.

- أيها السادة، أمنيته أن يتربى أبنائي ويتعلموا العلم والأدب ومكارم الأخلاق والفنون العسكرية، لكن تعليمي وسنّي يحولان دون أن أقوم بذلك، فلا تبخلوا عليهم بمساعدتكم من الآن فصاعدًا.

غازي خليل:

- سيدي، نحن مستعدون لتلبية طلبكم.

قسموا الوظائف بينهم، وعُيّن أربعة أساتذة لتعليم عثمان.

استدعى أَرْطُغْرُولُ غَازِي ابنه عثمان، فأسرع عثمان الحُطّى بهمة ابن الثامنة ونشاطه...

- تفضل يا أبي.

- اجلس هنا يا بُني، في هذا العمر ينبغي أن تتعلم فنون العسكرية، لقد تعلمت قراءة القرآن الكريم، أليس كذلك؟

- بالطبع تعلمت، حتى إنني حفظت كثيرًا من السور، إذا لم تصدّق فسأتلوها عليك.

- ما استدعيتك لأختبرك يا بُني، استدعيتك للحديث في أمر آخر، من الآن فصاعدًا سيعلمك أساتذتك العلم والأخلاق وفنون القتال.

- أمرك يا أبي.

- اسمع يا بُني، للتعليم خمسة أسس هي: العلم والأخلاق والأدب والقوة والشجاعة؛ فَمَنْ لا علم له، فهو جاهل يسير على حافة الهاوية مغمض العينين، ومن السهل جداً خداعه؛ وَمَنْ لا أخلاق عنده لا سِيَمَا أخلاق الإسلام فهو كالشوكة، لا يصلح لأي عمل ولا يفيد أحداً؛ ثم إِنَّ الإنسان الوقح عفن كريحه الرائحة، ينفر الناس منه، والقوة سيف قاطع يمكن لليد التي تحمله أن تجاهد به أو تظلم؛ فإذا كان لدى مَنْ يحمل القوة بيده علم وأخلاق وأدب، فلن يُضَارَ أحد من تلك القوة؛ ثم اعلم أن الإقدام رأس الشجاعة، فمن اجتمعت فيه تلك الصفات دون الشجاعة، فهو جسد بلا روح؛ خامل لا يتحرك؛ فلا تنسَ كلامي يا بُني!

- فهمت يا أبي.

ظَنَّ أَرْطَغْرُولُ غَازِي أَنَّ ابنه لم يدرك كلامه جيّداً رغم قوله: "فهمت يا أبي"، فالمهم الآن أن يتعلّم هذا الطفل العلم والأخلاق والأدب والقوة والشجاعة على الأقل.

كان هناك اهتمام كبير بتعليم عثمان الفنون العسكرية والقتالية؛ علّم أَرْطَغْرُولُ غَازِي ابنه عثمان ركوب الخيل بنفسه، فكان أحياناً يسقط عن الحصان وأحياناً يجمع به الحصان ويشبّب^(٣)، وتعلّم ركوب الخيل على حصان والده الأسود بصعوبة كبيرة.

نسي عربة الحمار منذ زمن بعيد، وصار يركب الخيل؛ ولما عرض والده "إذا شئت صنعتُ لك عربة حمار جديدة يا بُني" فرفض وقال: "ما لي ولعربة الحمار، لقد تعلّمت ركوب الخيل".

اشتراط معلمه للبدء بتعليم رمي الرماح الجري حول البيدر، ثم ممارسة لعبة العقلة على غصن قوي بشجرة التوت، وتكرار هذه الحركة أربعين مرة في اليوم لتقوية ذراعيه؛ ففوة الذراع ضرورية في رمي الرماح.

كان رمي السهام ممتعاً جداً، لكن عليه أن يصنع سهمًا عن كل سهم يخطئ الهدف، ولم تكن صناعة السهام أمرًا ممتعًا أو سهلاً حسب رأيه.

جرت عادة الناس بقطع أغصان الصنوبر الملساء في الخريف عندما تجف الأشجار، وكان عثمان يذهب لقطع الأغصان عدّة مرّات، لم يكن أفراد القبيلة يريدون تكليفه بشيء، لكنّه كان شغوفًا بالعمل، لم يستطع عثمان أن يفسر سبب اهتمام الناس اهتمامًا كبيرًا باختيار الأغصان عند قطعها، إذ كانوا يتجولون كثيرًا ولا يجلبون سوى بضعة حزم من الأغصان، وقد وجد عثمان طريقة أسهل لهذا العمل، وسرعان ما تناول فأسه وقطع الأغصان الملساء لشجرة صنوبر وجدّها في أحد أطراف الغابة؛ فجمع من الأغصان في ساعتين ما تجمعه القبيلة في يوم كامل، وعاد إلى مضرب الخيام مفتخرًا بقيامه بعمل عظيم، ونادى أهله وهو يريهم أغصانًا جمّعها: - انظروا، لقد جمعتُ هذه الأغصان، فما أنا قد قمت في عدّة ساعات بعمل يقوم به الآخرون حتى المساء.

نظر معلمه حسن غازي بوجه باسم إلى عثمان الصغير، وبدأ قاطعو الأغصان الآخرون يضحكون في دهشة؛ أسكت حسن غازي الضاحكين:

- علامَ تضحكون؟ فما هو عثمان الصغير اجتهد مثلكم، لا يضحك أحد على المجتهد، هيا انشروا أغصانكم لتجفيفها.

لم يستطع عثمان فهم سبب ضحكهم عليه:

- أستاذي، أريد أن أجفّ أغصاني في مكان آخر.

- بالطبع - يا عثمان - جفّفها في المكان الذي تريده.

تُترك الأغصان لتجفيفها عامًا، وتوضع في الفرن لتصبح أكثر جفافًا، وبينما خرجت أغصان الآخرين من الفرن منتظمة، خرجت أغصان عثمان معوجة، وعندما رأى الناس هذا أخذوا يضحكون، أما عثمان فأوشك أن يبكي، فأدركه حسن غازي:

- لا تحزن يا عثمان، لا بدّ من الخبرة لكلّ عمل في الحياة.

- أغصان الجميع منتظمة، فلماذا اعوجّبت أغصاني، رغم أنني جمعت أغصانًا منتظمة مثلهم يا أستاذي!

- يا عثمان، ألم تقل بأنك جمعت أكثر من الآخرين في زمن أقلّ؟

- بلى.

- إذا هذا سبب جمعهم أغصانًا أقلّ منك؛ لأنهم جمعوها بعناية، إنهم يقطعون من الأغصان ما يكون في طول أربعة أشبار على الأقل ولا يكون به عقدة، أما أنت فقد قلّمت الأغصان الملساء وأحضرتها، هذه الأغصان عندما تدخل الفرن، تلتوي هكذا.

- أستاذي، ألم تكن تعرف هذا من قبل؟

- بلى، يا عثمان.

- إذا لماذا لم تخبرني بهذا، عندما أحضرت الأغصان السنة الماضية؟

- يا ولدي الصغير، الإنسان يتذكّر قليلًا جدًّا ممّا يسمعه، أما ما يراه فيتذكّره أكثر، لا سيّما إذا رأى وسمِع وعَمِل فإنه لا يَنْسَى أبدًا؛ لذا لم أقل لك شيئًا آنذاك.

واصلَ عثمانُ تدريب السهام بسعادة؛ لأنه تعلَّم شيئًا جديدًا، كان ناجحًا في رمي السهام إلى مكان بعيد يومئذٍ، وكانت سهامه إلى السماء تسقط على بعد عشرات الأمتار، إلا أنه لم يستطع أن يصيب الهدف آنذاك، لم يستطع أن يصوب نحو الرديئة الجلدية على بعد خمسين مترًا؛ فأخطأ ثمانين عشرة من سبعين رمية قام بها، وكان هذا يعني أنه سيصنع يومئذٍ ثمانية عشر سهمًا، فقال لمعلمه:

- أستاذي، أليس من الممكن أن أجلس في يوم وأصنع ما أخطأته من السهام في التدريبات خلال أسبوع؟
قال معلمه ضاحكًا من اقتراحه هذا:

- يا ولدي الصغير، لا يهمني أن أجعلك صانع سهام، بل أن تصيب هدفك حين ترمي السهام، عندما تصنع السهام كلَّ يوم، فكّر في السبب الذي جعلك تخطئ هدفك، ولا تكرر ذلك الخطأ.

كان عدد السهام التي يصنعها عثمان يقلّ تدريجيًّا؛ فصارت الآن سهامه لا تخطئ الهدف، وراح حسن غازي يشاهد تلميذه بسعادة.

- يا ولدي الصغير، ها قد تعلمت رمي السهام إلى مكان بعيد وبدأت تصيب الهدف، يقول أجدادنا الـ "أوغوز" (Oğuz) ^(١١):

"لكي يُعدَّ التركيّ شجاعًا أو بطلًا لا بدّ أن يُسقط الطائر المحلّق بسهمه".

ابتعد عثمان قائلاً:

- حسناً!

وحينما همّ بالمغادرة، نادى معلمه:

- أستاذي، سأصطاد الحَجَل^(١) ليؤكل في العشاء.

- إن شاء الله يا عثمان!

عاد عثمان الذهاب بحماسة كبيرة في المساء خالي الوفاض ناكس الرأس، ذهب إلى خيمة معلمه قبل أن يذهب إلى خيمتهم مغرورق العينين يكاد يبكي.

- أستاذي، لقد رأيت اليوم سرباً من الطيور، لكنني لم أستطع أن أصيب أيّاً منها؛ جميعها تتحرك بسرعة كبيرة، ولا أستطيع أن ألحق بها.

- لا بأس يا عثمان، ستصيها غداً إن شاء الله.

ولم يتغير شيء في اليوم التالي أيضاً، ولا في الأسبوع التالي...، كان عثمان يعود من الصيد خالي الوفاض ناكس الرأس، وكانوا يضحكون منه قائلين:

- عثمان، أعطنا سهامك ونحن نصطاد لك.

استمرّ الحال هكذا ما يقرب من شهر، كان عثمان في كلّ إخفاق له يصير أشدّ عزماً.

و ذات يوم حينما كان ذاهباً إلى الصيد، رأى طائراً ميتاً في الطريق، ففكر قائلاً: "إذا أخذت هذا الطائر وعدت به، سيعتقد الجميع أنه صيدي، ولن يسخروا مني بعد ذلك" ثم قال: "لا، إنني لا أحب الخداع؛ إنّ خداع الناس يتنافى مع الأدب والأخلاق"، فحفر حفرة صغيرة ودفن الطائر الذي وجده في الطريق، وما كان يدري هل تُقرأ الفاتحة على الطيور أم لا، لكنّه فضّل أن يقرأها، وعندما حلّ المساء وعند عودته إلى بيته لم تكن يدها هما الخاويتين فحسب، بل كانت جعبته على ظهره أيضاً خالية بعد أن استخدم جميع ما بها من سهام.

مَرَّتْ الأيام هكذا، كان عثمان يُعَدُّ سهمه كلما حلقت الطيور ويرميها به، أما الطيور فتكون قد تخطت نقطة التقائها بالسهم؛ فلمعت عينا عثمان فجأة، وصاح قائلاً: "حسنًا، وجدتها! إنني أرمي نحو موضع الطيور، فتكون قد هربت وأفلتت عندما يصل السهم؛ فيجب أن أرمي نحو الجهة التي ستطير إليها".

هكذا عرف كيف يصيب الطيور، عندما مدَّ يده إلى جعبته، أدرك أنه لم يبق سهم آخرى، عاد ثانية، نظر أخوه الأكبر سَارُوبَاتُو سَاوُجِي إلى عثمان، ومازحه قائلاً: "خيرًا -أيها البطل العظيم- أعدت اليوم أيضًا خالي الوفاض؟" حزن عثمان وسكت.

حينما كانت الشمس تلملم آخر أشعتها في "سُوْعُوْتُ" وترحل عنها، كان عثمان يشاهد غروبها وهو يُفَكِّرُ كيف سينجح في الصيد.

في اليوم التالي عاد متسخ اليد والوجه، كان قد أصاب طائرًا، ها هو قد أصاب بسهمه طائرًا، جاء إلى مضرب الخيام صائحًا: "فعلتها، فعلتها" ولا يتمالك نفسه من الفرح.

- ها أنا قد اصطدتُ، أسقطتُ الطائر من الهواء على الأرض! الآن صرت شجاعًا أيضًا!

سمع أَرْطُفَرُولُ غَازِي صياحه، فخرج من خيمته ونظر إلى ولده الذي كان في حالة يرثى لها، وقال بوجه باسم:

- ولدي الشجاع، الآن صرت أنت أيضًا شجاعًا، ثم قَبِلْ جيبته.

ثم أهدها قوسًا جديدًا مكافأة، وقال له:

- من الآن فصاعدًا لا تستخدم هذا القوس اللين يا عثمان.

شعر عثمان بسعادة بالغة كأنما حاز الدنيا وما فيها.

شَابَ أَسْمَر

أصبح عثمان شابًا مفعماً بالنشاط بعد مرور عشر سنوات، إنه شاب جامح، صار يتدخل أحياناً في أمور تفوق عمره، وأحياناً يتجاوز حدّه، وقد اعتادت أذنه نوعاً ما على تحذيرات والده.

كان الصمت سائداً في الخيمة الكبيرة لعشيرة "قايي" في "سوغوث"، لم يكن يُسمع صوت سوى نغاء بعض الغنم والحملان وحفيف الأشجار عند هبوب الرياح، قطع الصمت صوت فارس يعدو بسرعة من بعيد، كان هذا صهيل حصان عثمان الأسمر، وكان يسابق أصدقاءه بالخيّل، وقد تخلّفوا مئات الأمتار، أخذ يناديهم مستهزئاً بهم:

- ظننتُ أنّ ما لديكم خيل؛ إنّها لا تختلف عن البغال.

لم يكن أحد يجرو على مواجهته لكونه قويّ البنية، طويل القامة، عريض المنكبين، طويل الذراعين، كان بعضهم يطلق عليه عثمان الأسمر بسبب وجهه الأسمر الباقل^(١)؛ وكان بعضهم الآخر يحبونه ويرجعون مشاكساته لشبابه ويطلقون عليه "عثمانجق" (*Osmançik*)، أي: عثمان الصغير ابن أَرطغرول غازی...

كان عثمان جامحاً بطاقة شبابه كلها، لم يكن هناك من لم يسمع باسمه في قرى الروم، كان عزيز النفس، فلا يسمح لأحد أن يتحدث عنه بسوء، بل لم يكن أحد يجرو أن يذكره بسوء؛ أجاد عثمان ركوب الخيل، وبرع في استعمال السيف، ولم يكن أحد ينافسه في رمي السهام.

كان يقود حصانه نحو أصدقائه بعنفوان الشباب، ويخيفهم بسيفه،
وفي إحدى المرات قال لهم:

- هيا، لتسابق في رمي السهام.

وضعوا قربة على بعد خمسين مترا، كانت الأسهم تصدر صفيرا
وتمر دون أن تلامس القربة، جاء دور عثمان فنظر إلى أصدقائه ساخرا،
وضحك قائلا:

- ألقوا حجارة بدلا من أن ترموا سهامًا.

أخذ سهما من جعبته، وشد قوسه جيذاً، وفي اللحظة التي بدأت
فيها أصوات الطقطة تصدر من أوتار القوس، رمى سهمه، اخترق السهم
القربة.

فرح عثمان فرحا شديداً وقال لمن حوله:

- إذا رميت السهم فارموه هكذا، فسيدخل من طرف الهدف، ويخرج
من الطرف الآخر، أما أنتم فتطلقون السهم مثل الأطفال وليس مثل
الجنود، هيا اركبوا خيلكم، ولنذهب من هنا.

انطلق عثمان بعد أن شبَّ حصانه "آي إيشيغي (Ay İşiği)" أي ضوء
القمر، وتقدم مثيرا الغبار، واستل سيفه وقطع أطراف الأشجار من حوله
دفعه واحدة، قاد حصانه تحت الأشجار المنخفضة، وتدلَّى هذه المرة
على جانب الحصان ممسكا بالسرج، وعندما تقدَّم لَوْح بالسيف نحو
أصدقائه، فانزوا جميعهم مذعورين، ازدادت سعادة عثمان، وقال:

- فلتهربوا أيها الدجاج الجبناء.

وبعد قليل رأوا خيام قبيلة "قايي"، وعندما وصلوا إلى المخيم، رأوا "أدْبَالِي" (Edebâli) ^(٧٧) جالسًا مع تلاميذه، كان أدْبَالِي أحد المقربين إلى والده؛ فكان الأخير يحترمه كثيرًا، وفي الوقت نفسه يُعَدُّ أدْبَالِي أحد العلماء الأجلاء الذين يستشيرهم والده قبل أن يبادر إلى أي عمل، لكنَّ عثمان كان لا يزال بعيدًا جدًّا عن إدراك عِظَم شأن أدْبَالِي.

عندما اقترب عثمان منهم، أثار الغبار حولهم، ولم يعد يرى شيئًا، نهض أدْبَالِي ونادى الفتى طويل القامة الممتطي الحصان:

- السيادة لا تعني أن تُخيف الأطفال هكذا بالحصان والسيف
يا عثمان، وإنما السيادة هي التواضع للمؤمن والتعالي على الكافرا
جذب عثمان اللجام محاولًا إيقاف فرسه، وأجاب وقد اختلط صوته
بصهيل حصانه:

- أنا لست سيّد هذه العشيرة، إنما ابن سيّدها.
- أنا لا أقول إنَّكَ سيّد، إنما أقول كن كالسيّد؛ تحدّث مثل السيّد، فكّر
مثل السيّد، تصرف مثل السيّد...

- أتريد أن تعطيني درسًا بكلامك هذا أمام الجميع؟
- الدرس يُعطى للطالب فقط، أي: يُعطى لمن يطلب العلم والمعرفة،
لا يُعطى لمن يتظاهرون بشجاعة زائفة على ظهور الخيل.
قال عثمان:

- انتبه، مَنْ أنت لتتدخّل في شؤوني؟
وجعل فرسه يعدو على الشيخ أدْبَالِي، وبدأ يطوف حوله، كان
الحصان يصهل، ويثير الغبار حوله، وقف أدْبَالِي في مكانه دون أن يتحرك،
أما عثمان فكان يدور حوله بحصانه، وصاح مَنْ حوله:

- ماذا تفعل يا عثمان؟!

اشتدّت ردود الأفعال وصيحات الناس، وانصرف أدبالي من المكان بهدوء دون أن يقول شيئا، كان عثمان يحدث نفسه: "كنت أظنّ أنّ أدبالي رجل ذو قيمة، إنّه خاف منّي، فليدرك عاقبة العبث مع عثمان الأسمر، والآن سيتحدث عني الجميع" وبدأ يخاطب الملتقيين حوله:

- أرايتم ماذا فعلتُ بأدبالي؟ ليس بمقدور أحد أن يلتقن عثمان الأسمر درسا، ولتعلموا أن اسمي عثمان الأسمر، أنا عثمان، لا يمكن لأحد أن يعبث معي.

كان عثمان يأمل أن يبارك له المحيطون به ويقولون: "مرحى... عيش... ويربتون على ظهره، لكنّ الجميع سرعان ما أطرقوا وتفرّقوا في هدوء، لم يستطع عثمان أن يجد تفسيراً لهذا؛ لم يعجب الناس ما فعله وأظهروا استياءهم وغادروا المكان، ظلّ عثمان وحيدا في الميدان مع حصانه، كان يشعر للمرة الأولى في حياته بوحدة شديدة وبأنّه ذليل ومثير للضحك.

رغم أنّه أطفأ كبرياء أدبالي، وجعله يعرف قدر عثمان، وأثبت كيف يكون الشجاع، لم يبقَ أحد حوله، وبدأ يشعر للمرة الأولى بالخجل ممّا فعله.

في أثناء عودته إلى الخيمة كان أذان المغرب تتردد أصداؤه، وقد أقام أَرْطَغْرُولُ غَازِي وأصدقاؤه الصلاة، أسرع عثمان وانضمّ إلى صفوف المصلين، وكان والده يؤمهم في الصلاة منذ مدّة، وكان عثمان أو أحد أخويه سَارُوبَاتُو أو كُونْدُوزُ أَلْب يقوم برفع الأذان، أما الآن فقد تقدّم والده في السن كثيرا؛ لذلك صلى آقچَه قُوجَه بالناس بدلا منه، وفي عقب الصلاة كانت تُتلى بعض من آي القرآن الكريم، ويشرح الإمام هذه الآيات، نظر آقچَه قُوجَه إلى أَرْطَغْرُولُ غَازِي قبل أن يبدأ الحديث، وقال:

- سيدي، لا يليق بنا التحدث بين أيديكم.

فرد أَرْطَغُرُولُ غَايَري عليه قائلًا:

- ليس للعلم سيد أو مقام؛ على الجميع أن يُنصتوا إلى أولي العلم،
تفضّل كلنا أذان صاغية لما تقول.

تلا آقچه قُوجَه آية من القرآن، ثم بدأ يفسرها:

- يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ
خَيْرٌ اظْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. (سُورَةُ النَجْمِ : ١١/٢٢).

ثم قال:

- هناك حكاية سمعتها كثيرًا من أجدادنا: معظم الجنود كانوا يذهبون
إلى الحرب من أجل إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله والحفاظ على
شرف الوطن، لكن فئة قليلة منهم كانت تدخل الحرب للحصول على
منفعة وغنائم وكسب شهرة، صحيح أنهم كانوا يشاركون في الحرب،
لكنهم كانوا لا يتقدمون الصفوف حيث القتال حامي الوطيس، بل يقفون
خلف الصفوف وينزوون في أطرافها فإذا رأوا الخطر مُخَدَّفًا فَرَّوا مولين
الأدبار؛ وإذا رأوا النصر يلوح في الأفق، برزوا من مكانهم يتسابقون فيما
بينهم لجمع الغنائم.

وهؤلاء هم أخطر أنواع الجنود في أي جيش؛ لأنهم يدخلون الوهن
والضعف إلى نفوس الجنود الآخرين ويعرّضون الجيش للخطر بسبب
خوفهم وهروبهم يوم الزحف، وهذه الآية تتحدث عن هؤلاء الذين
لم يدخل الإيمان في قلوبهم، حفظ الله عشيرة "قايي" من هذا النوع
من الناس.

وردة الجميع بصوت واحد:

- آمين!

تفرق الجميع بعد الصلاة، واستعدوا لتناول العشاء، فبسطت مائدة طويلة، ووضعت الصواني، كانت المائدة هيئةً جدًّا، والطعام عبارة عن برغل باللحم واللبن الرائب، لم يكن أَرْطُغُرُولُ غَازِي يحب أن تكون الأطعمة متنوعة أو أن ينهض أحد عن المائدة قبل الانتهاء من تناول طعامه؛ فكان عثمان وإخوته الكبار لا يستطيعون النهوض قبل الانتهاء من تناول الطعام سواء أعجبهم أم لم يعجبهم.

بعد أن جلس أَرْطُغُرُولُ غَازِي إلى المائدة، جلس من بعده أبنائه، كان الجميع ينتظره أن يبدأ الأكل؛ إذ كان سَبَقُ كبير العائلة يُعدّ وقاحة شديدة لدى العثمانيين.

كان من عادة أَرْطُغُرُولُ غَازِي أثناء الطعام أن يسأل عن أحوال أبنائه، ويبيدي اهتماماً بهم، في البداية سأل عن أحوال كُونْدُوزُ، ثم تحدّث مع سَاوِجِي، وعندما انتظر عثمان دوره، تجاهله والده؛ حدّث عثمان نفسه قائلاً: "تُرى ماذا حدث؟" كأن والده قد انزعج من شيء ما، لكن ما الشيء الذي أزعجه يا تُرى؟

بعد الانتهاء من تناول الطعام تفرق الجميع وهم يرددون دعاء الطعام، دعا أَرْطُغُرُولُ غَازِي ابنه عثمان:

- عثمان، ابقَ هنا، أريد أن أتحدّث معك.

كانت المقابلة الخاصة علامة على اعتراف الخطأ؛ فأدرك عثمان أنّه أخطأ، أطلال أَرْطُغُرُولُ غَازِي النظر إلى نجله الشاب من فوق الأريكة، وكان عثمان ينتظر مطرّقاً، بدّدت كلمات عثمان الصمت:

- تفضّل يا أبي!

- عثمان، تعلم أنّي أحبك أنت وإخوتك كثيرًا، لكنني سمعتُ أنّك قصرت اليوم تقصيرًا شديدًا في احترام الشيخ أدبالي، لقد جعلت الفرس يعدو عليه.

سكت عثمان، ولم يستطع أن يرد.

- الخطأ ليس خطوك وإنما خطئي أنا يا عثمان، لو أحسنت تربيتك لعرفت كيف تتحدّث مع الكبار، خاصّة علماء الدين الأجلاء مثل أدبالي، وكيف تتصرّف معهم.

- أبي، إذا كان ثمة خطأ، فليس منك، بل مني.

- لديّ طلب منك يا عثمان، اجعل الفرس يعدو عليّ، ولو شئت أيضًا ضعني في كيس كبير مثل المغول، وألقني أمام الخيل إذا شئت، تصرّف معي تصرّفات وقحة؛ لكن حذارٍ أن تقول شيئًا قبيحًا لأدبالي مرّة أخرى! أطرّق عثمان خجلاً، واحمّر وجهه.

- كيف تقول هذا يا أبي؟

- اعلم يا بُني، أنّ الشيخ أدبالي هو الدعامة الأساسيّة لقبيلتنا، وهو زعيمها الروحي، واعلم أيضًا أنّ الشيوخ والعلماء نور، وهم مرشدو الأمة كلّها في الطُرُق المظلمة، يمكنك أن تسيء إليّ، لكن حذارٍ أن تسيء إلى الشيخ أدبالي وأمثاله، فإنّه النور الذي يرشدنا الطريق، ولا يمكن أن يشوب الكذب كلامه البتّة، فما يقوله كلّ صدق، إنّ تقديره للأمور لا يخطئ، عارضني ولا تعارضه، إذا عارضتني فسأحزن وأنزعج، لكن إذا عارضته، فلن تنظر إليك عيناى، وإذا نظرت إليك فلن تراك، كلماتي هذه

ليست من أجل أَدْبَالِي، وإنما من أجلك أنت -يا ولدي العزيز- لأنَّ أَدْبَالِي صدره رحب؛ فلا مكان فيه لاستياء أو امتعاض أو بغض، عُذَّ كلامي هذا وصيتي لك!

- لكن يا أبي...

- من الآن فصاعدًا لا أريد أن أسمع منك شيئًا، إليك عني.

ضاق صدر عثمان لهذه الكلمات، وكان يفكّر قائلاً: "من أين ظهر لي أَدْبَالِي هذا؟".

خرج وأخذ يتجوّل، كان من عادة شباب العشيرة بعد الطعام أن يشعلوا النار في الخارج، ويجلسوا حولها يتسامرون إلى أن تحين صلاة العشاء، ذهب عثمان أيضًا ليتحدّث مع أصدقائه، فقطع الجالسون حديثهم عندما رأوه قادمًا، لم يستطع عثمان أن يفتر هذا التصرف في البداية:

- ماذا حدث، لماذا صمتتم عندما رأيتموني؟ لماذا لا تتحدّثون؟

أعاد عثمان سؤاله عندما لم يتفوّه أحد منهم بكلمة:

- إنني أكلمكم، أم أنكم قد أصابكم الصمم! لماذا لا تتحدّثون؟

نهض أحدهم وقال لعثمان بأسلوب حاد:

- نحن لا نتحدّث مع من يجعلون الخيل تعدو على كبارنا؛ وأهل

عشيرة "قايي" متمسكون بدينهم ولا يقبلون الوقاحة تجاه العلماء!

لم يستطع عثمان أن يتفوّه بشيء، وذهب إلى الصخور، وبدأ يتأمّل السماء، كانت النجوم كأنّها حبات لؤلؤ تناثرت على فراش شديد السواد، وكانت تضيء على الليل بهجة وتصيب العين بخيرة، كأنّ المجرة قد صارت طريقًا يمتدّ إلى ما لا نهاية، شاهد السماء طويلًا، وشاهد

النجوم المتناثرة تنسكب من كيس لؤلؤ على الظلام، ثم نظر فرأى كأن كل شيء حوله استخفى في بحر حالك السواد، لم يكن يظهر إنسان ولا خيل ولا غنم، وكأن كل شيء قد استخفى في أعماق هذا البحر.

أدرك عثمان خطأه، وقال لنفسه: "لقد ارتكبت خطأ، نعم إنني ارتكبت خطأ جسيماً"، إن لم تشرق الشمس واستمر هذا الظلام، فإن أولئك الذين يأتوننا بالنور سيصبحون زعماءنا، ويُنيرون طريقنا، بدأ يفهم كلام والده أفضل، وكلما حدقت عيناه في أعماق الظلام، فكّر فيما قاله ثانية: "إن الشيوخ والعلماء نور، وهم مرشدو الأمة كلّها في الظلمات"، النور يولد مع الشمس عند ميلاد كل يوم، أما ظلمة الروح فيبددها النورانيون.

بدأ أذان العشاء يأتي من بعيد، لكنّه كان يستحي من الذهاب إلى الصلاة مع الناس، وقال في نفسه: "إنني لن أتحمّل إذا اتخذ الجميع موقفاً تجاهي مرة ثانية"، استمرّ صدى ما قاله والده يتردّد في أذنيه: "أدبالي الدعامة الأساسية لقبيلتنا، وزعيمها الروحي، إن الشيوخ والعلماء نور، وهم مرشدو الأمة كلّها في الطرق المظلمة؛ يمكنك أن تسيء إليّ، لكن حذارٍ أن تسيء إلى الشيخ أدبالي".

ثم فكّر في الشيخ أدبالي، لقد جعل الفرس يعدو على العالم الذي لم يقصّر والده في حقّه لحظة، وتظاهر نحوه بالشجاعة، غير أنّ الرجل المسكين كم كان جميلاً ما قاله: "إنّ السيادة لا تعني أن تُخيف بعض الأطفال هكذا بالحصان والسيف، إنما السيادة التواضع للمؤمن والتعالي على الكافر".

وبينما كان يفكر قائلاً: "لكنني لست سيّداً، لماذا قال لي هذا؟" تبادرت إلى ذهنه الكلمات الأخرى لأدبالي: "إنني أقول لك: كن كالسيد، تحدّث مثل السيد، فكّر مثل السيد، تصرّف مثل السيد".

كُن كالسيد

”إنما السيادة أن تتصرّف مثل السيّد....“ بدأ عثمان يحلّ سرّ هذه الكلمات رويدًا رويدًا، في البداية فكّر في حاله قائلاً: ”إنني أخيف مَنْ حولي دائماً بفرسي وسيفي ومعصمي، غير أنّ الناس يحترموني لا لأنهم يخافون من سيفي، أو لأنني أطرح مَنْ يواجهني أرضاً في المصارعة، بل لأنني ابن السيّد أُرْطُزُول، هذا يعني أنّ الناس يحترموني احتراماً لوالدي؛ إنني أصرخ في وجه الناس بلا خوف ولا وجل إلا أنّي لا أوثر في نفوسهم، ولا أستطيع أن أسيطر على غضبي، فعندما أغضب أمسك بمقبض سيفي؛ وذات يوم قال رجل عالم حديثاً جميلاً عن الرسول ﷺ يقول: ”ليس الشديد بالصرعة، إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب“، فصرختُ في الصوفيّ عندما سمعت منه هذا قائلاً: ”لستُ بحالٍ تسمح لي بأن أتعلّم الدين والإيمان منك لكنّه كم كان محقّقاً، فأنا أسيرُ لقوتي وكبريائي ونفسي، وقد كنتُ أظنّ نفسي حرّاً دائماً، فإذا بحرיתי أسيرة نفسي؛ واحسرتاه عليّ، لقد أفسدتُ نفسي وأفسدتُ كل شيء“.

أفاق برهة، وبدأ يفكر بصوت قائلاً: ”جاءت قبيلة ”قايي“ من وسط آسيا إلى هنا، وقد حان وقت إنشاء الدولة، ونشر كلمة الإسلام في كلّ ديار الروم، غير أنّني مثل طفل مشاكس، أتناظر بالشجاعة للذين يريدون أن يشغلوني عن لهوي وألعاابي، يجب الرجوع عن هذا الطريق بأسرع وقت ممكن“.

كان في الخامس عشر من الشهر نفسه، طلع البدر كصينية كبيرة من الجبل المقابل، وكان النور قد تسلل إلى نفسه من البدر ومن الأضواء المحيطة به، وكان البدر أشاع الدفء بداخله.

وبينما ينزل من المرتفع الصخري سعيدًا جدًا، إذ عاهد نفسه قائلاً: "لن أتكبر على أحد، لن أستخدم قوتي على قبيلتي وإنما سأستخدمها على الأعداء، ولن أرفع يدي على أحد سوى الأعداء".

عندما وصل إلى عشيرته، قرّر أن يبادر إلى الشيخ أَدْبَالِي ليعتذر له، ويطلب عفوّه، لكن لم يكن هذا أمرًا سهلاً أبدًا؛ إذ لم يكن يستطيع النظر إلى وجهه، وكان يفكر كيف سيمثل بين يديه؟

في اليوم التالي، صحا جميع أهل العشيرة مع أذان الفجر، وقد اعتاد الناس ألا يناموا بعد صلاة الفجر، فالجميع يذهبون إلى أعمالهم.

بعد أن أدّى عثمان الصلاة مع الجماعة شرب خساء الصباح مع أسرته، وبينما كانوا يتفرقون، إذ بأزطُفَرُولُ غَازِي ينادي عثمان:

- يا عثمان، ألن تصلح اليوم الأشياء التي كسرتها؟

أجاب متظاهراً بعدم الفهم:

- وماذا كسرت يا أبي؟

- هل هذا سؤال يا بُنَيَّ؟ هل نسيت الخطأ الجسيم الذي ارتكبته تجاه

الشيخ الجليل أَدْبَالِي؟

- إنه...، ليس بعد يا أبي!

- ليس بعد! لماذا؟

- حتى وإن كنتُ أعرف خطي، فلا أجرؤ على الذهاب إليه، إنني في أشد الخجل منه.

- لا تقلق، فإن قلب أذربالي مثل البحر، بحر ما يدخله قدراً يخرج طاهراً، إنه لا يستاء منك، ما يهّمه أن تتعلّم من أخطائك.

- فهمتُ يا أبي.

- الآن اذهب إلى تكيّته بسرعة، بلّغه سلامي واحترامي، واطلب عفوّه.

- حسناً يا أبي.

كان عثمان سيفعل ما قاله والده، إلا أنه انتابه شعور شديد بالخجل لا يمكن وصفه، رحل من "شوغوث" إلى "أسكي شهير" (*Eskişehir*)^(١٨)، لا يدري كيف سيمثل بين يدي الشيخ؟ كان ينظر إلى حصانه ويحدّث نفسه قائلاً: "يا ليتني كنتُ حصاناً، ولم أكن في هذا الموقف، كيف اعتذر؟ وكيف أنال عفوّه؟".

وصل في النهاية بعد رحلة استغرقت ساعتين إلى قرية "إيث بُورُنُو" (*İt Burnu*) بالقرب من "أسكي شهير"، وقد بدت تكيّة الشيخ أذربالي من بعيد، وإذ به يضطرب، ويشعر بركبتيه ويديه ترتجفان، وكأنّه مريض شاحب لونه أصابته نوبة حمّى؛ يمسك لعجام الحصان بصعوبة، وعندما وصل أمام التكيّة ترجل.

استقبله تلاميذ أذربالي، ورحبوا به، وأبلغ أحد التلاميذ أذربالي بمجيء عثمان بن أَرطغرُول غازی، وفي حين كان عثمان بالخارج، أخبره أحد التلاميذ أنّ أذربالي في انتظاره.

شعر عثمان بضيق شديد وهو ذاهب إليه؛ فدعا الله قائلاً: "يا ربي، ساعدني"، من يعلم كم كان أذربالي سيؤخّره! ربّما يقوم بتصرّف ما أو

ربما يطرده من حضرته، ففكر قائلاً: ”مهما فعل، فإنه محق، وإنني أستحق هذا بل أكثر“، يجب أن يرضى كل مخطئ بنتيجة خطئه من البداية، هكذا توجه لمقابلة الشيخ أدبالي بهذه الفكرة.

كان أدبالي جالساً على الأريكة وفي يده سُبُحَة، وكان يقرأ شيئاً سرّاً، وعندما رأى عثمان رَحِبَ به، وأشار إليه ليجلس.

- أهلاً وسهلاً أيها السيد.

- أهلاً بك يا أستاذي!

كان صوت عثمان يرتعش عندما قال: أهلاً بك، وكان يتلوّى كأنما ابتلع سَكِينًا حاداً يقطع فؤاده وجوارحه، حاول التحدّث:

- أستاذي...

- تفضّل يا بُنيّ.

لم يستطع أن يجيب مجدداً، نظر أمامه، وبدأ يتحدّث مستجمعاً كامل شجاعته بعد برهة من الصمت.

- أستاذي لقد جئتُ أطلب عفوك.

- أستغفر الله يا بُنيّ.

- اعفُ عني يا أستاذي، لقد اقترفتُ خطأ كبيراً تجاهكم.

- ما أجمل ما يقوله حضرة مولانا جلال الدين الرومي:

”لقد مضى أمس يا عزيزي

فيجب أن نقول شيئاً جديداً اليوم“.

إنني أعيش اليوم يا بُني، وعليك أيضًا أن تعيش اليوم، انس كراهية الأملس وحقده وعداوته، فليكن الشيء الوحيد الذي تتذكره عن الأملس حسنًا، هناك كثير من الأعمال يجب أن نقوم بها في هذه الحياة القصيرة، وليس هناك وقت لعملها؛ لذا يجب أن نتناسى أحداث الأملس.

تضاعف خجل عثمان، وكأنه يشعر أن وجنتيه تشتعلان؛ إذ صارتا كالجمر، وفكر قائلاً في نفسه: "ليت يهينني، وليته يضربني، لو فعل فلن أشعر بالخجل هكذا"، لَمْ يفعل هذا؟! لقد أساء عثمان إليه أمام الجميع، لو كان عامله بالمثل ما كان ليصل إلى هذه الحال؛ إن سماحة الشيخ أَدْبَالِي كانت عقابًا أشد لعثمان، وعندما أراد عثمان أن يُقَبِّل يده، لم يسمح له قائلاً:

- أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَا بُنَي، مَنْ أَنَا لِتَقَبِّلَ يَدِي؟

- أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَا أَسَازِي، بَلْ مَنْ أَنَا لِتَحْتَرِمَنِي هَكَذَا؟

استمرَّ حديث أَدْبَالِي مع عثمان ساعات، وعند العشاء صَلَّى مَنْ فِي التَّكِيَّةِ جَمِيعَهُمْ خَلْفَ أَدْبَالِي، واستمرَّ حديثه مع عثمان بعد الصلاة، تحدَّثَ عن أحداث التاريخ، وحكى باستفاضة كيف أنَّ الدول المجيدة والممالك العظيمة جاء يوم عليها وتفتَّت وتبَخَّرت وتلاشت، فقال:

"عليك أن تغضب عند جهادك الكفَّار، لكنَّ غضبك حتى اليوم كان دائماً على أصدقائك وإخوانك، لقد خاف منك الجميع فاجتنبوا شرك.

يا عثمان الأسمر، يا ولدي الصغير، ما دام لديك الشجاعة والوفاء والعزم لن يستطيع أحد أن يلوي معصمك، لكنَّ الرجولة والشجاعة لا تظهر فقط في المعصم وإنما تظهر في الفؤاد والعشق، فإذا لم يكن

القلب متعلقاً بالله ﷻ وبرسوله الحبيب ﷺ لدرجة العشق، فلن تتعمق في داخلك ولن يختلف تأثيرك في نفسك وفي نفوس الآخرين عن تأثير الموج في الماء، كن دائماً مشدوداً مثل قوس يا عثمان...، مثل قوس مستعدّ لرمي سهامه، حيثنذ لن يمسك أذى؛ وعندما ترى الخطر فعليك أن تقضي عليه قبل فوات الأوان، فإذا لم يكن لديك ذاك الاستعداد، فلتعلم أن كل شخص وكل شيء سيصير عدواً لك، وإذا كانت الدنيا هي ميدان الجهاد، فليس لك حق الحياة أيضاً إذا لم يكن لديك استعداد لتخطي صعوبات تواجهك“.

تعظيم القرآن الكريم

استمرّ حديث أدبالي وثمان حتى منتصف الليل، وبعد انتهاء حديثهم استأذن عثمان من الشيخ أدبالي إلى غرفته، وعندما دخل الغرفة رأى سجادة كبيرة باللونين الأحمر والأسود، وأريكتين جنبًا إلى جنب عليهما سجاد أيضًا، وعند أطراف الأرائك الملاصقة للحائط وسائد من الحصر، وثلاثة قناديل على ثلاثة رفوف مثبتة في الحائط، وأمام تلك القناديل نقود سلجوقية، وقد تعجب عثمان منها.

بعد برهة حضر إلى الحجرة صوفي شاب، وتحدّث إلى عثمان قائلاً:

- هل تطلب شيئًا يا سيدي؟

- لا، وشكرًا.

- حسنًا، تصبح على خير يا سيدي.

- انتظر...، مَنْ أنت؟

- أنا "دُورسون" (Dursun) ^(١٩)، أحد طلاب الشيخ أدبالي.

- إذا دعني أسألك عن شيء يا دُورسون.

- تفضل يا سيدي.

- ما بال النقود أمام القناديل؟ أم أنكم تختبرون ضيوفكم هنا،

أيسرقون أم لا؟

- حاشا لله يا سيدي، مَنْ نحن لِنمتحن الناس، إنها إحدى العادات هنا، نترك نقودًا هنا، كي لا نُخجل مَنْ يكون في ضائقة مالية، وكي لا نجعل المعطي يتكبر؛ فالمحتاج يأخذ بقدر حاجته.

- وإذا أخذ الضيف النقود وذهب من غير حاجة؟

- لا أحد هكذا في تَكَيْتِنَا أو في بلادنا يا سيدي، ماذا يفعل الغني بالمال الزائد؟

- ولمَ لا؟ يأخذ المال، ويذهب ويصرفه.

- مَنْ ذا الذي سعد بالمال الحرام يا سيدي؟ نعلم أن المال الحرام النار أولى به.

- أنت محقّ، محقّ جدًا.

- إذا لم يكن لديكم ما تأمرون به، فلتأذنوا لي.

- شكرًا، تفضل يا دُورسُون.

خلع عثمان عمامته ووضعها جانبًا، وكان على وشك أن يخلع ثيابه ويضعها أيضًا إذ وقعت عيناه على المصحف الشريف المعلق على الحائط، كان هذا المصحف في غلاف من قطيفة قد بَلِيَ في مواضع متفرقة من أثر القراءة، مصحف تأكلت زوايا صفحاته من التقلب، أمسك عثمان بالمصحف، فقَبَله ووضعهُ على جبينه، ثم بدأ يتلو ما تيسر له من آيات القرآن الحكيم، قرأ وقرأ، آية تلو آية وسورة بعد أخرى.

عندما كان أذان الفجر يُرفع في الخارج، جاء أدبالي لإيقاظ عثمان، فإذا به يراه جالسًا على الأرض وقد أسند رأسه إلى زاوية السرير، وعندما أدرك مجيء أدبالي وقف في الحال.

أَدْبَالِي:

- أَلَمْ يعجبك سريرك يا بُني؟ لماذا لم تنم على الفراش؟ ولماذا جلست هكذا على الأرض الجافة؟

- إِنَّه يا أستاذي...

- نعم...

- هل يمكن -يا أستاذي- أن نأوي إلى فراشنا ونمد أرجلنا وننام في حين أن المصحف الشريف كتاب الله تعالى معلق هنا؟

تعجب أَدْبَالِي فجأة مما سمعه، وجرى الدمع في عينيه، وقال في نفسه: "أَيَّ تعظيم هذا لكتاب الله، وأي تبجيل أن ينتظر هنا ساعات دون نوم على الفراش حتى الصباح، وأن يجلس على الأرض الجافة وفي يده المصحف الشريف؟!".

أطال النظر إلى عثمان ودعا في نفسه لهذا الشاب التقى: "رَبِّ، أقسم لهذا السيد وذريته خدمة الإسلام الدين المبين، آمين".

التفت عثمان إلى أَدْبَالِي وقال:

- يا أستاذي، عندما كنت جالسًا هنا قبل قليل شرد ذهني، وسمعت صوتًا بين النوم واليقظة.

- أَيَّ صوت يا بُني؟

- سمعتُ صوتًا قادمًا من بعيد يقول: "يا عثمان، لقد عظمت واحترمت كلام الله، وأظهرت العزة، فليجعلك الله أنت وذريتك ومن تبعك في الدارين أعزاء إلى الأبد، وأجلاء ومكرمين".

استغرق أدبالي في الفكر صامتًا، كم كبر عثمان في عينه! كأنما فتح
عثمان الصغير قلب أدبالي بتصرفه هذا؛ أراد أدبالي أن يقول شيئًا ليعبر
عن تقديره، ففكر أنه حين يمدحه في وجهه الآن سيكون قد أضربه أكبر
ضرر، كان عثمان سينضج ويكتمل نموّه، وكان الحِضرم سيصير عنبًا،
والعنب سيصير دبّسًا، والدبس سيصير حلوى، وهكذا عثمان سيصبح
سيدًا، وستصبح ذريته من بعده يحملون لواء الإسلام.

الرؤيا أول بشارة للدولة العليّة

صلى أدبالي بهم صلاة الفجر، وبعد الصلاة خرج عثمان من المسجد وانتظر إعداد المائدة، وجلس جانباً؛ إذ كانت الشمس في "أشكي شهيز" قد ألقت حمرتها على السحاب قبل أن تشرق، والسماء تموج بالألوان من الأحمر إلى الأصفر...؛ استيقظت للتوّ الأزهار والطيور والرياح، فهي خاملة، فالرياح تهبّ حيناً ثم تهدأ، والصوت الوحيد المسموع الصباح الممدود، والثغاء، وكأنّ الطبيعة كلّها تستيقظ من جديد، وكأنّ عثمان يلاحظ المرّة الأولى جمال بدء يوم جديد، وكأنّ ميلاد هذا اليوم بشير بميلاد شيء جديد بداخله، فحينما كانت الشمس تتوهج على الحشائش المكسوة بالصقيع، كان هناك بريق يحيا في أعماق العالم الروحي لعثمان، لا بد أنّ جوانحه قد فاضت بشيء، وكان مولد هذا اليوم رسولاً لبعث جديد ويشري جديدة.

جفل عثمان من نداء الأستاذ دوزسون:

- سيدي، ننتظرك على المائدة.

- أنا آت يا دوزسون.

بعد الإفطار خرج أدبالي مع عثمان، وذهب الجميع إلى أعمالهم، منهم الراعي الجائل أبداً دون توقف، ومنهم الفلاح العازق الحقل حتى المساء.

سأل أدبالي عثمان قائلاً:

- هل تعرف أكبر حرب يا عثمان؟

- أظنها حروباً خاضها أجدادنا على الحملات الصليبية.

- كلا...

- إذا الحرب على الدولة البيزنطية، والاستيلاء على "بُورصة"

(Bursa) "؟".

- سيأتي اليوم ويدمرون الدولة البيزنطية، سيأتي يوم يستولون فيه على "بُورصة" والقسطنطينية أيضاً، لكن قبل تدمير الدولة البيزنطية وقبل الاستيلاء على القسطنطينية هناك عمل أصعب من تلك الأعمال يا عثمان.

- ما هو؟

- النفس يا عثمان، أي: مجاهدة كل شيء فيك يعجزك إلى السوء، رُوي عن سيدنا رسول ﷺ أنه قال عقب غزوة بدر: "رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"، ثم أوضح أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس؛ فالسيطرة على النفس عسيرة يا عثمان؛ إن السيطرة على جيش مكون من آلاف الأشخاص سهلة، أما السيطرة على النفس فشاقة؛ وإن فتح "بُورصة" ليسير إن كبحت جماح نفسك، فإن نجحت في هذا، فسترى فيما بعد كل شيء هيناً جداً بيدك.

غادر عثمان بعد أن قبّل يد الشيخ أذربالي، وفي الطريق كان يفكر فيما قاله أذربالي: "السيطرة على النفس... الجهاد الأكبر... التغلب على النفس...".

تغيرت تصرفات عثمان؛ فعاد شخصاً آخر مختلفاً تماماً، كان مهموماً بالتغلب على نفسه، وكان يدفن غضبه وفرحه في قلبه، ويسعى إلى تغيير أسلوبه مع الناس، ويقوم بتصرفات تليق بسيد، لم تكن يده تمسك السيف غضباً، ولم يكن يتباهى أو يتكبر على أحد.

شهدت الأيام الماضية نشأة الحاكم ونضوجه وتغلّبه على نفسه،
أمّا الآن فقد صار عثمان طالبًا ملازمًا لأدبالي.

في إحدى زيارته لأدبالي، وعندما كان يمرّ من أمام المنزل إلى الفناء،
رأى الزحام أمام المنزل، وشاهد الناس يضعون الطعام من القدور الكبيرة
إلى الأواني الفارغة، فسأل عثمان المريد الصوفي الذي يكنس الفناء:

- مَنْ هؤلاء؟

المريد الصوفي:

- يأمر شيخنا بتوزيع الطعام بين الفقراء المجاورين يا سيدي.

- هؤلاء الناس لا يشبهون الفقراء.

المريد الصوفي وهو يضحك:

- ليس هؤلاء هم الفقراء، بل هم مَنْ يساعدون في توزيع الطعام.

- حسنًا، أين الفقراء؟

- إنهم في بيوتهم يا سيدي، يقول شيخنا: "الفقير الحقيقي يترفع
عن مذلة السؤال"؛ لذا تُترك الأواني على أبوابهم.

أعجب عثمان برقة أدبالي ولو في إطعام المساكين، وجرت على
لسانه هذه الكلمات: "يا له من قلب مرهف لا يسمح ولو بإيذاء مشاعر
المحتاجين!".

البشرى التي جاءت مع الرؤيا

أَلَقَتِ السَّيِّدَةُ حَلِيمَةُ كُرَّةِ صُوفٍ كَانَتْ بِيَدِهَا، وَذَهَبَتْ إِلَى أَرْطُغُزُولٍ غَازِي:

- أَلَمْ يَحِنْ بَعْدَ وَقْتِ عُثْمَانَ يَا سَيِّدِي؟

- مَاذَا يَا سَيِّدَتِي؟

- الْفَرَحُ بِزَوَاجِهِ! مَضَى زَمَنٌ طَوِيلٌ مِنْذُ أَنْ تَزَوَّجَ إِخْوَتَهُ الْكِبَارَ، وَجَاءَ دَوْرُهُ الْآنَ.

- هَلْ هُنَاكَ مَنْ تَفَكِّرِينَ بِهَا يَا سَيِّدَتِي؟

- أَجَلْ يَا سَيِّدِي، رَأَيْتُ مُؤَخَّرًا "مَلْهُوْنًا" (Malhun) ابْنَةَ الشَّيْخِ أَدْبَالِي، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي إِنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِابْنِي عُثْمَانَ.

- هَلْ هُنَاكَ فَخْرٌ أَكْبَرُ مِنْ مُصَاهَرَةِ شَيْخِي أَدْبَالِي، لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ رَأْيَ عُثْمَانَ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

- لَنْ يَرْفُضَ عُثْمَانُ مَا تَوَافَقَ عَلَيْهِ يَا سَيِّدِي.

- وَإِنْ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِي مَعَهُ.

وَلِحِظَةِ خُرُوجِ السَّيِّدَةِ حَلِيمَةَ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا، أَسْرَعَتْ إِلَى عُثْمَانَ، كَانَتْ أَضْوَاءُ الْقَنَادِيلِ الْمُرْتَعِشَةِ تَنْيرُ الْخِيْمَةَ الْمَصْنُوعَةَ مِنْ وَبَرِ الْمَاعِزِ، وَكَانَ عُثْمَانُ يَتْلُو مَا تَيْسَّرُ لَهُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَكَأَنَّمَا قَدْ أُلْصِقَ عَيْنِيهِ بِالْصَفْحَاتِ، وَعِنْدَمَا سَمِعَ صَوْتَ أُمِّهِ رَفَعَ رَأْسَهُ.

- أَتَأْذَنُ لِي بِالْخُذُولِ يَا وَلَدِي؟

نهض عثمان من مكانه بعد أن أكمل الآية:

- تفضلي يا أمي.

- أريد أن أتحدث معك يا ولدي الشجاع، اجلس.

- كلي آذان صاغية يا أمي.

- حان وقت زواجك يا عثمان، ولقد تحدثت مع والدك في هذا الشأن، إن لدى الشيخ أدبالي ابنة اسمها ملحون، ولقد قررنا خطبتها لك، فما رأيك يا ولدي؟

- أمي، إنني أوافق على ما تروونه مناسباً.

- خير إن شاء الله.

- إن شاء الله يا أمي.

استغرق عثمان في الفكر بعد أن غادرت أمه، الزواج من ابنة الشيخ أدبالي، الزواج من ابنة إنسان عظيم بهذا القدر، مصاهرة إنسان من أهل القلب مثله، التقرب من ذي فؤاد كبير مثله، حدث نفسه قائلاً: "أفي الدنيا الفانية شرف أكبر من هذا؟".

كانت ملحون هي النظرة الباسمة لأدبالي، وانسياب الكلمات من لسانه، ونقشاً نقشه في قلب عثمان؛ هكذا باتت ملحون حياً ينمو في قلب عثمان، عشق عثمان ملحون دون أن يراها، كان الحب يُعرف في القلب، سواء رأت العين أو لم تر، إن أدبالي مثل صدفة فماذا يمكن أن تكون ابنته سوى درة؟

أبلغ آفجه قوجه أدبالي الخبر، قالوا: "سنأتي لخطبة ابنتكم"، أما أدبالي فقد اعترض على هذا الزواج، قال: "أنا شخص فقير، وابنتي أيضاً لا تليق بسيد"، بهت عثمان أمام هذا الرد المفاجئ، لكن ما باليد حيلة.

و ذات يوم جاء تجار من "أسكي شهيز"، وعندما كان أحدهم يُنزل أكياس القمح عن عربة الحصان، تحدّث إلى تاجر آخر قائلاً:

- أسمعْتَ؟ إنّ سيد "أسكي شهيز" سيخطب ابنة الشيخ أدبالي!

- حقّاً، من أين سمعت؟

- الجميع في "أسكي شهيز" يتحدّثون عن هذا، وسيذهبون إلى الخطبة مساء هذا الخميس.

- ترى ما هدف سيّد "أسكي شهيز"؟

- ليس سوى دعم الشيخ أدبالي له لتوسيع إمارته، وإلا فلماذا يتزوج الرجل الذي تجاوز الأربعين من عمره مرّة ثانية!

- أنت محقّ.

عندما سمع عثمان هذا استشاط غضباً، كان يجب أن يفعل شيئاً أولاً، يجب أن يعرف خطبة سيّد "أسكي شهيز" لمُلحُون مساء الخميس.

وفي يوم الخميس أخذ بعض أصدقائه، ونصب كميناً بالقرب من قرية إيتبورنو، وهاجموا القادمين لخطبة الفتاة عند المساء، وكان هدفهم إخافتهم فقط، وقد نالوا مرادهم.

ووفقاً للأخبار التي بلغت عثمان: رفض أدبالي أيضاً أن يُنكح مُلحُون لسيّد "أسكي شهيز"، وعندما سمع بذلك قال في نفسه: "خبر جيد".

كان عثمان يدفن حبه في قلبه، ويحاول الاستفادة من علم أدبالي قدر المستطاع، واستمرّ في الذهاب إليه مجدّداً وإن كان يحمرّ وجهه خجلاً.

كان أدبالي يُشكّل بدروسه حاكم المستقبل ونسلاً مجيداً كما يُشكّل العجين؛ إنّه ولي عهد وحاكم وقائد في المستقبل القريب.

في البداية تعلّم عثمان التواضع، وعلم أنّ التواضع أولى علامات العظمة لدى العظماء، وتعلّم بعدئذ كبح جماح النفس، وتحمل المسؤولية، وأن يكون سيّداً، تعلّم أيضاً أنّه يجب أن يكون آخر شخص يشبع في عشيرته، وتعلّم أنّه يمكن أن تكون المصائب الملمّة بهم بسبب أخطاء الحكام، تعلّم أيضاً أن تكون ممتلكات الحاكم كلّها هي ما يرتديه، وكلّما تعلّم ازداد علماً بجهله، وتعلّم أيضاً كيف يتغلّب الإنسان على ذاته.

يوماً ما استمرّ حديثه مع أذربالي حتى منتصف الليل، تحدّث أذربالي عن التاريخ، وعن سبب هلاك الأقاليم السابقة، وانهيار الدول القديمة، تحدّث عن الأمويين والعباسيين والأيوبيين والسلاجقة، كانا يتناقشان في مَنْ أخطأ وأين وفيمْ كان خطؤه، وكان عثمان يذلّ قصارى جهده للحصول على كلّ شيء وكأنّه فقير عثر على كنز في الطريق، كان مشغولاً بأن يملأ عقله المتعطش للمعرفة.

وتحدّث أذربالي عن الحقد والعداوة قائلاً: ”العداوة هي دودة تقرض قلوب الناس والدول من الداخل، فالحاكم هو مَنْ يحول دون استمرار العداوة مع الخصوم، باستثناء خصم واحد، إنّهُ النفس؛ فإنّ العداوة الوحيدة التي يجب أن تستمرّ -إلى أن توافينا المنية- هي عداوة الإنسان لنفسه“.

انتهى حديثهما في ساعة متأخرة من الليل، وبعد مدّة بدأ عثمان يرى في حلمه الإشارات الأولى لبشرى كبيرة، ألا وهي خروج هلال من حجر الشيخ أذربالي، وكبر الهلال حتى صار بدرًا، ثم استخفى في صدر عثمان، ثم خرج من صدره شجرة بلوط أخذت تكبر تدريجيّاً، وكلّما كبرت اخضرت، وكلّما اخضرت امتدّ ظلال أغصانها حتى نهاية الأفق في القارات الثلاث، ثم انقسمت الشجرة إلى ستة أغصان

غطت البحار واليابسة، وإذا بجبال القوقاز وطوروس وأطلس وهيموس قد صارت أعمدة لتدعيم هذه الشجرة، أما عند جذور الشجرة، فكان هناك أنهار كبيرة تتلاطم، وكانت دجلة والفرات والنيل وطونة تندفق وهي تقذف الزبد.

وقد بدت له الحقول المليئة بالزرع الممتد مساحات شاسعة، والقباب العالية، والأبراج الجميلة، والمدن الرائعة، وكان صوت الأذان المسموع من مآذن تلك المدن يمتزج مع تغريد البلابل وزقزقة الطيور، وإذا بريح عاصفة هبت ونثرت أوراق الشجرة إلى أنحاء الدنيا كلها.

تصيب عثمان عرقاً من دهشته وانفعاله، واستيقظ فجأة من عظمة ما رأى، وقد شعر بالحزن لانتهاؤ الرؤيا، ثم انتظر استيقاظ أذربالي، فحكى له بالتفصيل ما رآه، كان أذربالي يصدق عثمان وهو يهز رأسه بوجه مشرق باسم؛ هذا الفتى الذي لا يزال في العشرين من عمره أغرق أذربالي في عوالم مختلفة، وكان عثمان ينتظر ردّ شيخه أذربالي، صمت أذربالي برهة، وفكر محدقاً في نقطة ما، ثم بدأ يتحدث دون أن يفسد ابتسامته:

- ولدي عثمان، أبشر، لقد أعطاك رب العالمين أنت وذريتك السلطنة والحكم، بارك الله فيك وفي سلطتك؛ سيؤسس من سيأتون من ذريتك دولة عظيمة تشمل حدودها القارات الثلاث الكبرى والبحار.

شعر عثمان بمشاعر تمزج بين الفرح والدهشة، يا له من شرف كبير! ويا لها من بشرى عظيمة! هذه إشارة وبشرى لإقامة دولة عظيمة، دولة سائدة على القارات الكبيرة والبحار المترامية الأطراف، دولة صاحبة أراضٍ خصبة، ومدن رائعة، ومآذن، وجوامع، وأناس سعداء، إنها دولة حلم...

- ملُحُون...

خفق قلب عثمان، عندما سمع اسم مَلْحُون، تابع أَدْبَالِي:
- مَلْحُون أيضًا ستكون زوجتك من الآن.

ازدادت سعادة عثمان، وبعد عدة أيام ذهب أَرْطَغُزُولُ غَازِي والسيدة حليمة إلى أَدْبَالِي لطلب مَلْحُون، كان عثمان ينتظر في "سُوغُوث" عودة والديه بقلق شديد، عاد أَرْطَغُزُولُ غَازِي قرب الليل، وبشّرت والدته حليمة: "مبارك يا عثمان، أتمنى لكما السعادة في الدارين!".

تمت خطبتهما بعد عدة أيام، وأقيم عرسهما بعد عدة شهور، وعقد نكاحهما طُوزْغُوث أحد طلاب أَدْبَالِي؛ عرس ساذج، وهدايا بسيطة هيّنة ربّما الشيء الوحيد الذي كان عظيمًا هو جمال مَلْحُون.

كانت مَلْحُون تجلس في المسجد بهدوء بجانب عثمان الذي لم يرفع عينه عن الأرض، وكانت تُؤمّن على أدعية الأستاذ دُورْسون، وبعد عقد القران أقيم موكب عرس كبير، كانت السيدة مَلْحُون تمتطي حصانًا، وكان عثمان أيضًا يقف بجانبها ممتطيًا حصانه أي إيشيغي، وكان أمامهما وخلفهما أكثر من ثلاثة آلاف فارس يتقدمون تارة ويتراجعون تارة أخرى، يبدو الطريق من "أَسْكِي شَهِير" إلى "سُوغُوث" وكأنه نهر خيل متدفق.

كانت مسؤولية الأسرة هي المسؤولية الأولى التي تحملها عثمان، وقد باعدت هذه السعادة بينه وبين طموحات الشباب، فهو من الآن صارت معه رفيقة حياته، رفيقة ستكون إلى جانبه دائمًا.

سَيِّد شَابَ

في عام ١٢٨١م كان أَرْطُغْرُؤُ غَازِي سَيِّد قَبِيلَةِ "قَايِي" يَعِيشُ أَيَّامَهُ
الْأَخِيرَةَ، وَقَدْ تَجَاوَزَ التَّسْعِينَ مِنْ عَمَرِهِ، وَكَانَ يَفَكِّرُ فِي ثَلَاثَةِ وَتَسْعِينَ عَامًا
مَضَتْ فِي مَيَادِينِ الْقِتَالِ، وَهُوَ عَلَى ظَهْرِ الْخَيْلِ، وَتَحْتَ صَلِيلِ السَّيْفِ
وَأَصْوَاتِ التُّرُوسِ.

هَاجَرُوا آلَافَ الْكِيلُو مَتْرَاتٍ، وَتَذَكَّرُ أَنَّهُ سَقَى حَصَانَهُ فِي نَهْرِ "جَيْنُحُونْ"
وَكَأَنَّ ذَلِكَ حَدَثَ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ، أَمَّا الْيَوْمَ فَهُمْ فِي "سُوغُوتْ" وَسَطِ
الْأَنَاضُولِ، قَالَ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ: "شَتَانِ مَا بَيْنَهُمَا".

فَالْحَيَاةُ بِنَظَرِهِ لَيْسَتْ إِلَّا حَجَرٌ رَحَى تَطْحَنُ الْأَعْوَامَ وَالشُّهُورَ
وَالْأَسَابِيْعَ وَالْأَيَّامَ، قَضَى أَرْطُغْرُؤُ غَازِي حَيَاتَهُ فِي طَرِيقِ الْهَجْرَةِ بَيْنَ
"خُرَاسَانَ" (*Horasan*)، و"مَرْو" (*Merv*)، و"مَاهَانَ" (*Mahan*)، و"كَنْجَه"
(*Gence*)، و"أَخْلَاطْ" (*Ahlat*)، و"أَرْزُورُومْ" (*Erzurum*)، و"حَلْبْ"، و"أَضْنَه"
(*Adana*)، و"قَرْجَه طَاغْ" (*Karacadağ*)، و"سُوغُوتْ".

يَبْدُو أَنَّ الرِّحِيلَ الْآنَ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ رِحَالَتِهِ السَّابِقَةِ كُلِّهَا؛ فَلَنْ يَكُونَ
مَعَهُ أَهْلُهُ وَقَبِيلَتُهُ خِلَالَ رِحْلَتِهِ الْأَخِيرَةِ؛ فَهَذَا الرِّحِيلُ سَيَكُونُ فِيهِ وَحِيدًا
تَمَامًا، لَنْ يَكُونَ بِجَانِبِهِ حَصَانُهُ، أَوْ سَيْفُهُ، أَوْ سَهَامُهُ، أَوْ تَرْسُهُ؛ سِيرَ حِلَّ
وَمَعَهُ جَسَدُهُ فَقَطْ وَقِطْعَةٌ نَسِيْجٍ طَوَّلَهَا مِتْرَانِ مَلْفُوقَةٌ عَلَى جَسَدِهِ، وَمَعَهُ
أَيْضًا أَعْمَالُهُ وَخِدْمَاتُ قَدَمِهَا لِلْإِسْلَامِ...

لن يبقى أحد على وجه الأرض، فالموت طريق يسلكه الجميع، وكما يموت العبيد والفقراء والمساكين يموت أيضًا الأباطرة البيزنطيون وسلاطين السلاجقة والأمراء والطيور والأشجار، والأزهار، والحشرات، كل كائن حي تشرق عليه الشمس وتغيب سيموت، كل سيموت ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

في حين كان أَرْطُغْرُوْغُ غَازِي مستغرقًا في هذه الفِكر، سمع آيات من الذِّكْر الحكيم تُتلى بجانبه، فقال في نفسه: ”يا له من صوت رائع! يا له من صوت بديع!“ كان القارئ يتلو بصوت عذب آيات القرآن المُنزل على النبي ﷺ هدى للعالمين.

في لحظة توقفت فيها القراءة، قال بصوت خافت متعجب:

- نادوا أبنائي.

جاء كُونْدُوزْ وعثمان وسَارُوبَاتُو سَاوْجِي أبناء أَرْطُغْرُوْغُ غَازِي في الحال إلى جانب أبيهم المضطجع على فراش الموت، ثم بدأ كلامه:

- أبنائي، لقد قضيت عمري في ميادين الحرب والهجرة، سأرحل إلى العالم الآخر هذه الأيام والله أعلم، لدي بعض النصائح لكم، امثلوا دائمًا أمر الله، أنفوا حياتكم في طريق الغزو.

جال الدمع في أعين أبنائه، ثم واصل أَرْطُغْرُوْغُ غَازِي كلامه:

- لا تتخلفوا أبدًا عن طريق الغزو، فالدناءة شأن الدنيء، وانصروا دائمًا المسكين والمظلوم، ولا تنسوا أن السير في طريق الحق صعب جدًا، ومملوء بالمشقة والتحديات...

وفي أثناء الوصيته تتابع نفسه، وشعر بالإعياء وهو يتكلم، فتوقف قليلًا ليلتقط أنفاسه ثم تابع:

- أبنائي، السيادة هي حمل الجبال على العاتق، لقد سمعنا من أجدادنا كثيرًا عن حروبهم بعضهم مع بعض؛ لقد تقاتل الأخ مع أخيه من أجل العرش، أما هذا القتال فلم يُسرَّ به إلا الأعداء، لا أريد أن تتقاتلوا هكذا، أو أن تجعلوا قبيلتنا يذبح بعضها بعضًا؛ وصيبي الأخيرة وطلبي الأخير منكم أن يكون عثمان سيدًا من بعدي إذا وافقتم.

أجاب كُونْدُورُ وَسَارُوبَاتُو سَاوَجِي على طلب والدهم قائلين:

- طلبك أمر يا أبانا، نحن نعرف أنَّ عثمان سيدنا من الآن فصاعدًا.

وبعد عدة أيام انتقل أَرْطُغْرُولُ غَازِي إلى رحمة الله تعالى؛ فصلَّى عليه الشيخ أَدْبَالِي، ودفن أَرْطُغْرُولُ غَازِي في "سُوغُوث"، إنه أَرْطُغْرُولُ غَازِي الذي قَدِمَ من قلب آسيا الوسطى إلى الأناضول، ها هو يُدفن في أرض الأناضول، كأنما يؤكد على أنها الوطن الجديد، وهكذا وقع على عاتق عثمان مسؤولية كالجبل وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

أرعى الليل سدوله على الخيمة الكبيرة في "سُوغُوث"، وقد التحفت الأماكن كلها السواد، إلا أنَّ ضوءًا مرتعشًا كان ينبعث من خيمة السيد عثمان؛ إذ لم تكتحل عينه إلا بالسهاد، وكان يشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه، مسؤولية قبيلة كبيرة، وكان يدعو الله أن يوفقه:

"يا ربي، نور حياتي كلها بنورك، وافتح عليَّ بمعرفة الحقائق لأنشر الإسلام في البلاد كلها، اشرح صدور عبادك جميعًا لهذا الدين، اجعل سيفي راية في طريق الدين، ومرشدًا في طريق الحق عند القتال، ومُدُنًا بقوة من عندك لمقاومة الكفار أعداء الدين، وابغتهم بما آتيتنا من قوة، اللهم استعملنا في الخير وارضَ عنا، آمين".

وفي الغد بدأ عثمان غازي يتجول في قبيلته، إنه سيّد القبيلة المهيّب، طويل القامة، عريض المنكبين، طويل الذراعين، وكان جذّعه أطول من ساقيه؛ فكانت هيئته تزداد على ظهر الحصان، وهذا المظهر يعطي من يراه من أصدقائه أمناً، ومن يراه من أعدائه خوفاً ورهبة.

ربّما كان عمر الثالثة والعشرين يدلّ على الصبا والشباب إلا أنّ عثمان كان يجب عليه أن ينضج بأسرع وقت، فعندما يترك لابنه الراية التي أعطاهها له والده أَرطُفَرُولُ غَازِي، يجب أن يشعر بالاطمئنان أنّه قام بأعمال مفيدة لأُمّته.

ذهب قصداً إلى والدته، كانت قد استلقت على فراشها وقد ظهر عليها تعب الأعوام الماضية، وعندما رأت عثمان، أثار وجهها المتغصّن من الشيخوخة وتبسّمت.

انحنى عثمان على يد السيّدة حليلة قائلاً:

- كيف أنتِ يا أمي؟

ما الذي لم تصنعه هاتان اليدان، اليدان اللتان تمسكان زمام الخيل في طُرُق الهجرة الطويلة، اليدان اللتان تحلبان الماعز، وتصنعان اللبن الرائب، وتعدّان الطعام، اليدان اللتان ترتبان بيت سيّدها، وترتيبان ثلاثة فتيان شجعان، وتوقظانهم لأعمالهم، واللذان أبلّتا عمراً من أجلهم.

عانقت الوالدة حليلة ابنها، وقبّلتها، واشتمت رائحته، ثم رفعت رأسها ونظرت لابنها، الذي لم يتجاوز طوله شبرين عند طفولته، والذي كانت تحمله في قماط بالأمس القريب، وقد صار اليوم سيّداً، وتولى مسؤولية القبيلة، قالت السيّدة حليلة:

- يا بُنَيَّ، أنت الآن سيد، يا عثمان الأسمر، السيد هو من يرتدي قميصًا من نار، لا تخبِ ظنَّ مَنْ يَحِبُّونَا، ولا تجعلنا أضحوكة لأعدائنا يا عثمان الأسمر.

- نحن نسعى في طريق الحقِّ، فلا يكن لديك أدنى شك في هذا، لكن لا نستطيع أن نعرف مصيرنا، فمشيئة الله نافذة في كلِّ أمر.

وظل بجانبها مدّة، ثم عاد إلى خيمته، وطلب من أمّه قبل أن يغادر خيمتها الدعاء قائلاً:

- لا تحرمينا من دعائك يا أمي!

بينما كان يستعد للذهاب إلى الشيخ أدبالي، إذ سمع صوته وهو يتحدث مع الحراس بالخارج، كان يقول بصوت جهوري:

- نريد أن نزور سيدنا إذا سمح لنا.

فخرج عثمان بسرعة لمقابلة ضيفه الكبير أمام الباب:

- أستاذي، لماذا تجشمت العناء إلى هنا؟ كنت سأتي إليكم.

- السادة لا يذهبون إلى أناس مثلنا.

- أستغفر الله، تفضلوا.

دخل أدبالي الخيمة ورزًا عثمان طويلاً، كان أمامه صهره وسيد قبيلة "قايي" أيضًا، من يعرف قريبًا سيصبح والد دولة عالميّة ستستمر في حكم العالم عدّة قرون، قال في نفسه:

"كم تغير عثمان الشاب الأسمر الذي كان مشاغبًا بالأمس القريب، كيف أصبح يتصرف الآن بأدب تحت وطأة العبء الكبير الذي يتحمله".

أَدْبَالِي:

- سيدي، وصهري عثمان؛ بارك الله فيك وفي سيادتك وأهلك وعشيرتك، فتح الله عليك، ولتكن والد الأيتام، والمسؤول عن كل متبطل، وحامي المساكين، فلا تجد عن الحق والعدل في أعمالك كلها.

يا بُنَيَّ، أنت سيد، من الآن فصاعداً شأننا الغضب والانهام والخطأ، وشأنك الحلم والتحمل والتسامح، فستكون من الآن أكبر معين لنا في عجزنا والقوة الرشيدة في ضعفنا، وستكون والدًا يطعم الجائعين، ويكسو المساكين، ستكون السيد.

ولدي العزيز، اعلم أن العداوة لا تغفو ولا العدو لا تخش ممن يُمسك بيده سيفاً من الأعداء، بل من عدو بين جنيتك يغمد سيفه في جسدك، نفسك هي عدوك الذي بين جنيتك؛ فعندما تتكبر علمها التواضع، وعندما يملكك الغضب علمها السكوت، وحينما تعتقد بأنها تمتلك كل شيء، ذكرها بالموت، ذكرها بأنك ليس عليك أن تكون سيد نفسك فحسب، وإنما سيد قبيلتك أيضاً.

يا بُنَيَّ، تعلم الصبر، واعلم أن الأزهار لا تفتتح إلا في الربيع، ولا تنس أيضاً أن حياة الدولة مرتبطة بحياة الناس، أحي الناس تحي دولتك.

يا بُنَيَّ، إن حملك ثقل وشاق جداً؛ وأهل عشيرتك مرتبطون بك، ونجاحك مرهون بهم، أعانك الله، فستدعو لك دائماً، من يعرف ربما يأتي اليوم الذي تصبح فيه زعيماً للدولة التي رأيتها في الرؤيا، ربما لا ترى تلك الأيام، لكن سيرها من يأتي من بعدك؛ ومن ثم فإنني ومريدي جميعاً تحت إمرتك، ولا تنس ما قلته لك.

- أستاذي، لا فُضَّ فوك، أحتاج إلى دعائكم ووقوفكم بجانبني كما أحتاج إلى الماء والهواء، فأنا عثمان بن أَرْطَغْرُؤُوسَ سأعمل جاهداً مخلصاً لإعلاء كلمة الله، وللجهاد في طريق الحق، ومن أجل دين الله، ومن أجل القيام بواجباتي المفروضة عليّ، أعدك بذلك، إنني في حاجة ماسة لدعائك يا شيخني.

ثم انصرف أَدْبَالِي بعد أن استأذن السيد عثمان، كانت زيارة قصيرة، لكنّها مهمة جدّاً بما تحتويها من النصائح والعظة.

كان عثمان يستحضر في ذهنه كلمات أَدْبَالِي ويكرّرها، ويضع خططاً لتنفيذ ما قاله على أرض الواقع، قال أَدْبَالِي: "يا بُنَيّ، تعلّم الصبر، فالأزهار لا تتفتح حتى يأتي الربيع"، ففكر قبل التعجل بالإقدام على القيام بأي عمل؛ ضع الخطط، وتعلّم النظام كي لا تنهزم ثم تندم.

الغارة الخاشية

سرعان ما انتشر نبأ تولي عثمان سيادة قبيلة "قايي"؛ فأسعد ذلك بعض الحكام البيزنطيين المجاورين وبعض أمراء الروم والتركمان، وشعر بعضهم بالقلق.

كان السيد عثمان يستشير في كل عمل يقوم به بمقتضى المسؤولية التي يتولاها، وكان مدركاً أن لا بركة في عمل من دون شورى؛ فكان يستشير الشيخ أذربالي وقادته أيضاً قبل الإقدام على أي أمر، ثم يقول كلمته الأخيرة، فكانت أعماله تلقى قبول الأغلبية.

كان السيد عثمان يعدّ أذربالي تاجاً على رأسه؛ فكان يجد في كلماته كلها فضائل ومعاني جمّة؛ إذ كانت هذه الفترة تهيئة لوضع أساسات دولة عالمية، وكان أذربالي ينصح عثمان دائماً في إدارة الدولة.

- يا بُني، حذار أن تثق في جندك وسلاحك وقوتك، أو أن تضاعف خصومك، لا تعاد الجميع، وتخاطر بسيادتك، ليس هناك عدوّ صغير؛ فعدوّ تستهين به سيُتزل بك مصائب ستعجز حتى عن إدراكها، لا تنسَ - يا سيّدي - أن حشرة أذلت النمرود.

ولا تُنبّه العدو الغافل، اتركه غافلاً، لا تستفز أعداءك وتزيد عداوتهم؛ فإثارة العدو تولّد العداوة.

تذكّر دائماً قائد أجدادنا السلاجقة العظيم "ألب أرسلان" (*Arslan*)^(١) ذا الضجة الكبيرة، وثقّ في قوته، فكان يشاهد جيشه من هضبة عالية، عشرات الآلاف من الجنود يثيرون الغبار بمسيرتهم، جيش تتعالى صيحاته في خطواته كلّها؛ عندما رأى جيشه العظيم دار بخلده:

”أنه لو وقعت تلك السماء لن تنزل إلى الأرض، فإنها ستظل معلقة على أطراف رماح فرساني“، وقد استشهد على يد قائد قلعة صغيرة.

بعد أن ترك السيد عثمان أدبالي جمع قاداته للتشاور، وهم: ”قُونُوز أَلْب (Konur Alp)“، و”طُوزْغُوث أَلْب (Turgut Alp)“، وعبد الرحمن غازي، وآقْجَه قُوجَه، وكُونْدُوز أَلْب، و”قَرَه مُرْسَل (Kara Mürsel)“، و”سَالْتُوق أَلْب (Saltuk Alp)“...

- أيها القادة، إن رأيكم من الآن فصاعداً يهمني في كل شؤوننا، فماذا أنتم قائلون؟
قُونُوز أَلْب:

- أرى أن نعلن الحرب على الحكام البيزنطيين إذا وافق سيدنا؛ فإنهم إذا سنحت لهم أقل فرصة لن يتوانوا عن إراقة الدماء من دون تفريق بين رجل وامرأة، وشاب وكهل، فلنحاسبهم على جرائمهم.

لم يرق لعثمان غازي كلام قُونُوز أَلْب.

- أنت تاج رأسي يا قُونُوز أَلْب، لكنك لا تستطيع أن تقوم بتصرف تعييه، فكل إنسان يفعل ما تقتضيه أخلاقه.

تبسّم من كانوا بالحجرة لكلام عثمان غازي، كان قُونُوز أَلْب يستمع إلى السيد بانتباه، فتابع قائلاً:

- كان والدي ﷺ يقول: ”الدناءة شأن الدنيء“، نحن لن نكون هكذا مثلهم، لا نستطيع أن نعادي الحكام البيزنطيين كلهم، وعلينا ألا نزيد أعداءنا؛ فدعنا لا نعاد من لا يعادينا، لكن إن أبوا إلا الحرب، فنحن لا نخشى إلا الله.

- حسناً، هل الرسول ثقة؟ ربّما يكون آيا نيقُولاً يدبّر مؤامرة!
- أستبعد هذا يا سيدي، فأنا أعرف الرسول جيّداً منذ سنوات، لقد
أتى لنا بأخبار صائبة جدّاً، إنّه موضع ثقة.

- متى يقومون بالهجوم؟

- غداً ليلاً.

- فَوُتُوْزْ أَلْب!

- أمرك سيدي.

- هذه المسألة لك، خذ رجالك، وافعل ما يجب تجاه هذا الهجوم.

- أمرك سيدي.

- والله معك.

- إن شاء الله.

في الليلة التالية، كان القمر يتوارى أحياناً خلف السحب، وأحياناً
يظهر على استحياء، وعندئذ يضيء المكان بضوء خفيف، ثم تعود الليلة
حالة الظلام، لم يُسمع من بعيد سوى خرير الجدول، وصوت تصدره
حشرات الزيز دون كلل.

أمر فَوُتُوْزْ أَلْب بأن تُربط الخيل بعيداً في الخلف، وأن يتربص رجاله
السبعون كامنين عند مدخل "خَرْمَانْ قَايَا"، ثم وجه تعليماته الأخيرة:

- أيّها الشجعان، عندما يأتي جنود نيقُولاً، يعترضهم من الأمام
الجناح الأيمن، ويحيط بهم الجناح الأيسر، وعندئذ تطوقونهم في الحال،
وحاولوا قدر الإمكان سحق العدو بالسهم، ستهجمون مع أول سهم
أطلقه، وحذار أن يستخدم أحد سيفه أو سهمه قبل ذلك.

كانت كتيبة نيَقُولاً قادمة إلى "خَرْمَان قَايَا" في هدوء، وهم يحملون في أيديهم المشاعل، وكانت تلك الكتيبة مكونة -بحسب أصوات نعال الخيل- ممّا يزيد عن مائة أو مائة وخمسين شخصاً.

اقتربت الكتيبة شيئاً فشيئاً، حتى وصلت قرب أجمة اختبأ فيها قُونُوز أَلْب ورجاله.

وفجأة تبدد الغطاء الهادئ لِليل بصياح قُونُوز أَلْب.

- يا الله!

تحرك رجال قبيلة "قَايِي" مع سهم قُونُوز أَلْب، وأمطروا القوات البيزنطية بوابل من السهام؛ فكان صغير السهام يختلط بصراخ الجنود البيزنطيين، فعلى إثر كلّ صغير صرخة تدوي، وتفرقت الكتيبة كلّها ما عدا عشرة فرسان فقط، أما باقي الفرسان فقد سارعوا بالفرار.

ولم يسمح قُونُوز أَلْب لأحد أن يتبعهم، قائلاً:

- اتركوهم يذهبوا، وليخبروا أمير "إِينَاكُول" مع مَنْ يقاتلون، اربطوا الأسرى فلنأنا عائدون.

عاد قُونُوز أَلْب إلى "سُوغُوث" من دون خسائر قبيل صلاة الفجر، ولم يكن نور القنديل المرتعش في خيمة عثمان غازي قد انطفأ بعد، كان السيد ينتظر رجاله المغيرين، وعندما سمع الأصوات، خرج على الفور.

- قُونُوز أَلْب!

- لبيك سيدي.

- بارك الله فيكم! ماذا فعلتم؟

- هجمنا على مَنْ جاؤوا مغيرين على "خَرْمَان قَايَا" -يا سيدي-
وشتتنا كتيبة أمير "إِينَاكُول".

- هل لديكم خسائر؟

- كلا يا سيدي، لدينا فقط بعض الجرحى.

- الحمد لله.

كان السيد عثمان يُكَبِّر في طمأنينة وهو يؤدّي صلاة الفجر.

وبعد عدّة ساعات استدعى عثمان غازي القائد قُونُوز أَلْب، وقال له:

- قُونُوز، لا شك أنّكم أحضرتُم أسرى من "خَزْمَان قَايَا".

- نعم، أحضرنا يا سيدي، لدينا أسيران.

- ابعث إلى آيا نِقُولَا رسالة مع هذين الأسيرين، قل له: "عشيرة

"قَايِي" تتخذ مِيخَال أمير "خَزْمَان قَايَا" صديقًا، وأعداء أصدقائنا أعداؤنا أيضًا" فليعلم هذا، وليتصرّف على وفقه، وليكن واجبنا أن نُعرِف العدو المتغطرس قدره.

أرسلوا هذه الرسالة إلى أمير "إِينَاكُول" مع الأسيرين.

وبعد مدّة قصيرة أبلغوا السيد عثمان أن مِيخَال أمير "خَزْمَان قَايَا" قد

حضر لمقابلاته، وكان مبتسمًا مشرق الوجه، يرتدي ثوبًا بنيًا، ويحمل حول خصره سيفًا مستقيمًا، فعانق السيد عثمان بامتنان، وقال له بلغته العثمانية الربيكة:

- سيد عثمان، أظهرت معنى السيادة والشجاعة والوفاء، ولقد أتيت

لأقدم لك الشكر على إنقاذك لنا من غارة أمس، فشكرًا جزيلاً.

تبشّم السيد عثمان قليلاً، وقال:

- الوفاء بالعهود من طبائعنا يا مِيخَال، فعندما نقول إنّنا سنفي، فلا بدّ

أن نعطي الوفاء حقّه.

- سيدي، لدي أمنية لا أعلم هل يمكن أن تلبّيها؟

- ما هي؟

- اجعلني بين قادتك يا سيدي، ربّما أكون عوناً لكم.

- ميخال، لقد سمعت من والدي كثيرًا عن مساعداتك لنا، أما رغبتك هذه فيجب أن أناقشها مع رجالي، لا أستطيع أن أقول لك شيئًا من دون التشاور معهم.

اجتمع كبار عشيرة "قايي" مرّة ثانية للتشاور وبينهم كوندوز ألب، والسيد ساووجي، وقونوز ألب، وغيرهم، لكن كان هناك شخص مختلف عنهم جميعًا، شخص مختلف في وقوفه وجلوسه، ورأسه الأصلع المتمایل بانفعال، وملابسه المتسخة الدكناء، إنّه ميخال!

بدأ السيد عثمان كلامه متحدثًا عن هذا القائد المرتبك، قال مشيرًا بيده إلى ميخال:

- إنّ صديقًا قديمًا لوالدي يريد أن ينضمّ إلينا، فماذا يرى رجالي؟

بدأ الحديث عبد الرحمن غازي الأكبر سنًا قائلاً:

- لقد قدّم ميخال منذ البداية خدمات واضحة ل قبيلة "قايي"، لا أعلم ماذا يعتقد إخواني، لكنني أعتقد أنّه رأي مناسب.

أيّد الآخرون أيضًا كلام عبد الرحمن غازي، وفي أثناء قول السيد عثمان كلمته الأخيرة، تهلّل وجه ميخال الأمرد فرحًا.

- ميخال من الآن فصاعدًا هو أحد قادتنا.

واصل السيد عثمان حديثه وسط الأصوات المهتّة:

- إخواني، لقد زاد عداء آيا نيقولا بعد غارة "خَرْمَان قَايَا"؛ إنه الآن منشغل بالاتحاد مع مَنْ حوله من الأمراء البيزنطيين الآخرين، كي يسلبنا حقنا في الحياة، فماذا ترون؟
طُورْغُوث أَلْب:

- سيدي، إنني مثنٍ يعرفون نيقولا جيّداً، لم ننس ماشيةً وممتلكاتٍ فقدناها على يديه؛ إنه ثعبان ينتظر العدو في جحره، وإذا كان هدفه الحصول على أراضينا، فسيهاجمنا آجلاً أم عاجلاً.

- في رأيك ماذا يجب أن نفعل؟

- أرى أن نهاجمه نحن قبل أن يهاجمنا، فإذا هاجمناه فسنحظى في الأكثر بشهادة نعدّها تفضلاً وإحساناً من الله تعالى علينا، وسنكون قد نلنا إحدى الحسنين، أما إذا انتظرنا هجومهم، فإننا نُعرّض أطفالنا ونساءنا، أي: عشيرتنا كلّها للخطر والهلاك.

- معك حقّ يا أخي، في رأيي أنّ كلام طُورْغُوث أَلْب مقبول، فما رأيكم؟

صدّق المستشارون على كلام طُورْغُوث أَلْب وقال السيّد الكلمة الأخيرة:

- إذا سنقوم بحملة على "إينَاكُول" بعد خمسة أيام، نعوذ بالله من أن يخزينا!

تفرّق المجتمعون وهم يرددون:

- آمين.

الأفتدة نَحترق

لم يكن لعشيرة "قايي" جيش منظم، وقد أنشؤوا وحدة عسكرية تتكون من ثلاثمائة فارس من الشجعان، خرج جيش عشيرة "قايي" إلى الحملة نحو "إيناكول" يتقدمهم السيد عثمان، وبقيت أزواجهم خلفهم يدعون لهم بالنصر على أعدائهم.

علم نيقولا بقدم السيد عثمان إلى "إيناكول" فنصب له كمينًا، وفي حين كانت شمس الصباح ترتفع في السماء، حوَّصر جيش "قايي" بالقرب من قرية "أزْمَنِيبِلِي (Ermenibeli)"، ولحظة أن همس السيد عثمان:

- هناك فخ!

بدأت السهام تتساقط على أفراد قبيلة "قايي" كالمطر، وكان جنود "قايي" يسقطون عن صهوات جيادهم واحدًا تلو الآخر مثل أوراق الخريف، واستشهد كثير منهم، إذ كانت السهام تأتي من الجهات كلها.

بدأ السيد عثمان يدعو رجاله إلى رباطة الجأش بعد أن أصابهم الفزع.

- رجالي الشجعان، لا تفزعوا! طُورُغُوثُ أَلْب!

- لتيك يا سيدي.

- سنهاجم الجناح الأيمن.

- عبد الرحمن غازي!

- حسنًا يا سيدي.

- أخِي كُونْدُوزَا!

- حَسَنًا سِيدِي.

- قُونُوزْ أَلْب!

- فَهَمْتُ يَا سِيدِي.

- هَيَّا، يَا اللَّهُ!

هجم قسم من جيش "قَايِي" على الجانب الأيمن من طوق يضربه العدو حولهم، وهم يرددون (الله! الله!)، إلا أن القوات البيزنطية أظهرت مقاومة عنيفة لهذه الهجمات، فلم يكن من السهل البتة اختراق ذلك الطوق؛ فسحب السيد عثمان جيشه، ثم عاود الهجوم مجدداً، حيثذُ خرق الطوق بعد استشهاد كثير من الجنود، ونجح أفراد "قَايِي" في التخلص من الكمين، إلا أنهم خالفوا عشرات الشهداء في ميدان المعركة، ولم يجرؤ نيقولا على تعقب جنود "قَايِي".

انتظر جيش عشيرة "قَايِي" وقتاً في الغابة، لم ينبس أحد بكلمة، لم يكن هناك صوت سوى صهيل الخيل، يا له من ترقب حزين، وموقف أليم! قال السيد عثمان بصوت حزين:

- أعزائي، إخواني، إنما النصر والهزيمة قدر الله، ونحن نؤدي واجبنا فقط؛ حاشا لله أن نعصيه بقولنا "لِمَ حدث هذا؟" هيا، فلنذهب ونأخذ شهداءنا من هناك لندفنهم.

عندما عادوا إلى "أزْمِينِيلِي"، رأوا مشهداً مروّعاً جداً؛ عشرات الشهداء بعضهم قد تكوّم على الأرض منكباً على وجهه، وبعضهم الآخر تكوّم وقد بُترت يده، لكتهم جميعاً كانوا يمسون سيوفهم بأيديهم، منهم من أصيب بسهم في ظهره، ومنهم من أصيب بسيف.

لم يستطع عبد الرحمن غازي تحمّل ما رآه:

- جميعهم أصيبوا من ظهورهم، يا للهول!

في هذه الأثناء، اقترب أَيْقُوثُ أَلْب من السيد عثمان، وانحنى على أذنه.

- سيدي، سلّمنا الله جميعًا.

- سلّم الله المسلمين يا أَيْقُوث.

- سيدي، أريد أن أقول شيئًا.

- تفضل.

- لا أعرف كيف أقولها يا سيدي، "بَايْقُوجَه (Baykoca)" ابن أخيكم.

أدرك السيد عثمان الأمر، لقد سقط بَايْقُوجَه ابن أخيه الأكبر سَاوْجِي شهيدًا، كان بَايْقُوجَه صبيًا في الرابعة عشرة من عمره لم يطرّ شاربه بعد، كان قلب بَايْقُوجَه أقوى من قبضته، انضمّ إلى الجيش عندما سمع عن القيام بحملة على "إِينَاكُول"، وفي هذا الكمين الدمويّ استشهد في زهرة شبابه، كيف سيتمّ إخبار السيد سَاوْجِي باستشهاد بَايْقُوجَه؟

نظر عثمان غازي إلى أخيه سَارُوبَاتُو سَاوْجِي من بعيد، وقد كان السيد سَاوْجِي مرتابًا في الأمر؛ إذ كان يبحث عن ابنه الكبير بين الشهداء، فذهب عثمان غازي إلى السيد سَاوْجِي بهدوء.

لم يستطع أن يقول سوى: "أخي الأكبر" واحتضن أخاه، كان السيد سَاوْجِي قد أدرك ما حدث، فحاول أن يتمالك نفسه وهو يعضّ على شفثيه، وقد نزل الخبر على فؤاده كالجمر، خبر كأنه حديدة ملتهبة تكوي فؤاده، خبر جثم على صدره كالجيل.

في هذه الأثناء، قَدِمَ كُونْدُوزُ أَلْب، فعانق الإخوة الثلاثة بعضهم بعضاً بقوة؛ وصمت الجميع وصمت كل شيء، صمت الطبيعة كلها برهة، وتحَدَّث البكاء فقط، واحتضن بعضهم بعضاً بشدة، كأنما لن يفصلوا أبداً، ثم ترَدَّد صوت السيد سَاوَجِي المبلَّل بدموعه في الأرجاء كلها، صوت كأنما يخرق الآذان، صدى يصل إلى السحاب في السماء:

- فليكن بَايْتُوجَهْ وألف بَايْتُوجَهْ فداء للإسلام الدين الحق!

احتضن السيد عثمان ابن أخيه الشهيد، ووضعه مع الشهداء الآخرين على خيلهم، واصطحبهم إلى القرب من نُزل حمزة بك، فأرقدوا الشهداء جميعاً بملابسهم على رابية تشبه منضدة يوضع عليها النعش، وصلّوا صلاة الجنازة، ثم توجهوا نحو "سُوغُوث".

وفي "سُوغُوث" كانت النساء ينتظرن خبر انتصار أزواجهن وإخوتهن وأبنائهن، سُمع صوت طفل يقول:

- إنهم قادمون!

خرج الناس من خيامهم لاستقبالهم، وهم ينتظرون أن يسمعوا: "لقد انتصرنا!، وكانت السيدة مَلُحُونُ أيضاً تنتظر زوجها، فرأت في وجه السيد عثمان حزناً، وفي وقفته أسى، عندئذ أدركت أَنَّ أمراً سيئاً قد وقع. كان السيد سَاوَجِي يأتي في الخلف ممسكاً بإحدى يديه لجام فرسه، وييده الأخرى لجام فرس ابنه الشهيد.

فرس بلا فارس، كانت عشيرة "قَايِي" تعرف جيداً ماذا يعني أن يأتي الخيل بلا فارس، وقفت السيدة "مَهْلِيكَة" (*Mehlaka*) زوجة السيد سَاوَجِي برهة أمام ما رآته، فأثت "سُوغُوث" بألم أم فُجعت في ولدها، ألم سقط على فؤادها كجمرة ملتهبة؛ فحاولت أن تنادي زوجها علها تكون قد أساءت الفهم.

- سَاوَجِي! أين بَاتِقْوَجَه؟

ترجل السيد سَاوَجِي، وذهب إلى زوجته، وأمسك يدها، وقال
والدموع تسيل من عينيه:

- لقد أعطانا ربّ العالمين أمانة واستردّها مِنّا اليوم يا سَيِّدَتِي!
ثمّ انعقدت الكلمات في حلقه، ولم يستطع أن يتحدّث بأكثر من
هذا.

تردّد صدى أنين السَيِّدَةِ مَهْلِكَةً أولاً، ثمّ دوى صوتها الذي مزّق
الأفئدة.

كان السيد عثمان يسمع صوت زوجة أخيه، ولا يملك أن يفعل شيئاً،
انقبض صدره، وجثم اليأس على قلبه، وقال في نفسه:
”هل سَتُمْنِي العشيرة بالخسارة دائماً بسببي؟“.

وفي الربيع تتفتح الأزهار

تردّد في الجبال صوت فارس يعدو بفرسه من "سوغوث" إلى "أشكي شهيز"، كان ذلك الفارس هو السيّد عثمان في طريقه إلى أستاذه أدبالي، وصل إليه في ساعة متأخرة من المساء، فوجده يقرأ كتاباً، انتظر في صمت حتى ينتهي، ثم بدأ السيد عثمان الحديث، وحكى عن هزيمتهم وعن استشهاد ابن أخيه؛ استمع أدبالي إلى السيد عثمان طويلاً في صمت، ثم بدأ كلامه بصوته الأجلج باعث الطمأنينة في القلوب:

- إنّ الأزهار تتفتح في الربيع، إلا أنّ الربيع لا يأتي بتفتح زهرة واحدة، يجب أن يتعلّم السيد الصبر، فاليوم جاءت سحابة وحجبت الشمس، لكنّ الشمس لا تستخفي خلف السحابة.

- الحقّ ما قلت يا أستاذي، لكنّ هناك ألماً يعتصرني؛ أعلم أنّ هذه الهزيمة قد وقعت بسببي.

- اسمع يا بُنيّ، لقد وقعت غزوة أحد في عهد الرسول ﷺ، كانت أحد غزوة عسيرة، وكان هناك شجاع في هذه الغزوة، إنّه أنس بن النضر ؓ، أخذ يقاتل المشركين حتى انقضّ عليه العدوّ بقوته كلّها نأراً منه، فأصيب ببضعة وثمانين جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، ولم يتعرّف عليه أحد سوى أخته بشامة كانت في جسده، حينها فهم الصحابة أنّ الآية الثالثة والعشرين من سورة الأحزاب نزلت في أنس ومن معه من الشهداء الآخرين؛ إذ تقول الآية:

وافق أَيَقُوثُ أَلْبَ وقُونُوزُ أَلْبَ على هذا الرأي.

السيد عثمان:

- اتَّضَحَتِ المسألة، إِذَا نستولي على "قَرَّاجَه حِصَّاز (Karacahisar)"
أولاً. قُونُوزُ أَلْبَ! اتَّخِذِ الاستعدادات اللازمة لهذا الأمر!

- أمرك يا سيدي!

- أَيَقُوثُ، دَبِّرِ الإِعاشَةَ للعشيرة.

- حسناً يا سيدي.

- عبد الرحمن غازي! لنضع معاً خُطَطَ الفتح.

- كيفما تشاء يا سيدي.

ارتفعت الشمس على أعلى قمة في "سُوغُوث" حينما جلس السيد عثمان مع كُونْدُوزُ أَلْبَ تحت شجرة يناقشان كيفية الاستيلاء على "قَرَّاجَه حِصَّاز"؛ كان السيد عثمان يرسم بعضاً في يده على التراب، وكان كُونْدُوزُ أَلْبَ يشاوره في بعض الأمور، وفجأة رفع السيد عثمان رأسه على صراخ فارس يعدو من بعيد بسرعة مثيراً الغبار حوله، فقال السيد عثمان:

- هذا أحد الراصدين، ومجيئه لا يبشّر بالخير أبداً.

- لا تقلق، سيكون خيراً إن شاء الله يا سيدي.

كان الفارس يبحث عن السيد عثمان صائحاً بانفعال:

نهض عثمان غازي من مكانه وناداه:

- تعال هنا!

سارع الفارس إلى السيد عثمان من دون إبطاء، وجاء القادة الآخرون

أيضاً.

- خيرًا، لَمْ هذا الاضطراب؟
- الأمور سيئة جدًا يا سيدي، لقد تحالف نيُقولاً أمير "إيناكول" مع أمير "قَراجَه حِصَاز"، وسيهاجمونا بجيشيهما.
- تنهّد السيد عثمان بعمق، وفكّر برهة، ثم قال في رباطة جأش:
- حسنًا، هل سيأتون من جهة "بَلْجِيك"، أم من جهة "دُومَانِيْج"؟
- من جهة "دُومَانِيْج" يا سيدي.
- حسنًا، هذا يكسبنا قليلًا من الوقت، فُونُوز أَلْبَا أخبر القادة جميعًا أن يجتمعوا في الحال.

الحبوب في "دومانيج"

بعد بضع دقائق كان السيد عثمان يجتمع بقادته، ويخاطبهم قائلاً:
- إخواني، بينما نخطط نحن للاستيلاء على "قَرَّاجَه حِصَّاز"،
إذ ينبغي ألا يتحالف مع أمير "قَرَّاجَه حِصَّاز" للهجوم علينا، يجب أن نستعدَّ
بأقصى سرعة.

كُونْدُوزُ أَلْب:

- سيدي، أين نحارب؟

- يجب أن نحارب خارج "سُوغُوث" بقدر الإمكان يا أخي.

- إذا، فلنستعد بسرعة لنلقاهم في "دومانيج".

- استعدوا على الفور!

قام مَنْ في المجلس إلى أعمالهم بخطوات سريعة، وذهب السيد
عثمان أيضاً إلى خيمته، وعندما دخل وجد السيدة مُلْحُونُ تعتني بطفلها،
لقد علمت من تعبيرات وجه السيد عثمان أنَّ الأمور لا تسير على ما يرام،
فقالت له:

- لم أنت مضطرب يا عثمان؟

- إننا خارجون في حملة يا عزيزتي.

- متى؟

- الآن.

- الآن!

- لقد اتحد أميراً "إيناكول" و"قزاجه حصار" وسيقومون بالهجوم علينا.

- حفظ الله عشيرتنا من كل سوء!

- آمين!

أمسك عثمان يدي زوجته قائلاً:

- ملّحون، إذا لم يصلحكم منا أخبار خلال خمسة أيام، فاتركوا هذا المكان على الفور، اجتمعوا النساء والأطفال كلهم واذهبوا قصداً إلى "خزمان قايّا".

ضمّ السيد عثمان الرضيع المقمط إلى صدره، وقبّل وجته.

- "أورخان" (Orhan) "١٣"، هيا اكبّر بسرعة.

أخذ السيد عثمان سيفه وسهامه وجعبته ودرعه، ثم ودّع زوجته، وقال لها قبل أن يغادر الخيمة:

- ادعي يا ملّحون، ولتدع العشيرة كلّها لأزواجها وأبنائها وآبائها، ادعوا بالآلا يخذلنا الحقّ تعالى في غزوتنا.

- إن شاء الله يا سيدي! لن يحرمنّا الله من رئاستك لعشيرتنا وبيتنا، في أمان الله!

تحرك جيش "قايي" من "سوغوث" ليرحل صوب "دومانيج"، وكان مئات الفرسان يغدون بخيلهم مشيرين خلفهم سحابة من الغبار الكثيف، وكان عليهم أن يصلوا إلى "دومانيج" بأسرع ما يمكن، لم تكن أفواههم تنبس ببنت شفة، وكان عثمان غازي يمشي في مقدّمة الجيش،

وعلى جانبيه شقيقاه كُونْدُوْزْ أَلْب وسَارُوبَاتُو، وأيضًا أَيْقُوْثْ أَلْب وقُونُوْزْ أَلْب وعبد الرحمن غازي...

بدأت الشمس تتوارى خلف الأفق، وعندما تَدَثَّرَت السماء بلون نارِي يتدرّج من الأحمر إلى الأصفر، بدت "دُومَانِيْنِج" من بعيد، لكنّ العدو لم يبدُ في الأفق، التفت السيّد عثمان إلى مَنْ بجواره مبتسمًا:

- واضح أن ضيوفنا لم يأتوا بعد، فالبيزنطيون يرتدون دروعًا ويلبسون خيلهم أيضًا الدروع؛ لذلك يتحركون ببطء شديد، كما أنّهم لا يسافرون ليلاً؛ لذا اعتقد أنّهم سيصلون إلى هنا غدًا وقت الضحى، فلنقم نحن باستعداداتنا.

كُونْدُوْزْ أَلْب:

- سيّدي، سنقوم بعمل الاستعدادات، لكنّا نشعر بالجوع، وننتظر متسائلين متى يأمر سيّدنا بتناول الطعام.

- فلتناول طعامنا، هل لدينا لحوم يا أَيْقُوْثْ؟

- نعم، كيف لا يا سيّدي!

أشعلت النيران، وبعد قليل امتلأت الأرجاء برائحة اللحم، والتفّ الشجعان حول النيران وتناولوا طعامهم جيّدًا، ثمّ صلى بهم السيّد عثمان العشاء، وقال بعد الصلاة:

- قُونُوْزْ أَلْب، قَسِّم جنودنا إلى عدّة أقسام، ووزعهم بين الأنحاء كافّة، تحسبًا للاحتتمالات كلّها، ربّما يقرم البيزنطيون بهجومهم ليلاً، وليكن في الجوار الحراس أيضًا.

- أمرك يا سيّدي.

وُضع الحراس حول المكان.

كانت هضبة "دُومَانِيْج" تزداد جمالاً في الليل، وكأنَّ آلاف النجوم ترقب عشيرة "قَائِي" ، وأيضاً حفيف أوراق الشجر تحركها الرياح الآتية من جبل "يَزْجَه" (Yirce) "١١"، كان الجميع نائمين ما عدا الحراس وشخص آخر، إنَّه عثمان، فقد كان يدعو في منتصف الليل، ويتضرَّع إلى الله قائلاً: "إنَّما النصر من عند الله، غداً ستكون غزوة عسيرة، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللَّهُمَّ ليس لي أنا وعشيرتي غاية سوى كسب رضاك، فانصرنا على أعدائنا في حرب الغد".

بعد أن انتهى من دعائه نظر إلى الجنود، فوجد بعضهم ينام في الخيمة وبعضهم الآخر خارجها، شاهدتهم بابتسامة حزينة، قال في نفسه: "إنَّها الحرب، فبعضهم سيفقدون أرواحهم هنا غداً، ولن يتمكنوا من العودة إلى "سُوغُوْث"".

نهض شجعان عشيرة "قَائِي" لصلاة الفجر، وعندما بدأ الفجر يبرِّغ على هضبة "دُومَانِيْج"، أدوا الصلاة ثم صاح السيّد عثمان:

- أيُّها القادة، أيُّها الشجعان، أيُّها الجنود، فلندعُ الله جميعاً أن ينصرنا في حربنا؛ إنَّنا نؤمن بقوة الدعاء، ونؤمن أيضاً أنَّ النصر والهزيمة أمر يعلمه الله، إنَّما علينا أن نؤدِّي واجبنا، اليوم هنا سيفقد بعضنا دماءهم وبعضنا الآخر أرواحهم، فليتسامح الجميع.

وكأنَّها لم تكن صلاة الفجر بل صلاة العيد؛ فتعانق الجميع طالبين العفو:

"سامحني يا صديقي! سامحني يا أخي! سامحني يا قائدي!".

عانق السيد عثمان أيضًا أخويه كُونْدُوزْ أَلْب وسَارُوبَاتُو، ثم عانق قاداته الآخرين واحدًا تلو الآخر وطلب منهم جميعًا العفو، ثم جمع قاداته مرة أخرى، وتحذثوا عن كيفية القيام بالحرب وعن مهمة كل فرد منهم.

ومع اقتراب وقت الضحى، قال الراصدون إنهم رأوا سحابة من الغبار الكثيف في الأمام، إنه جيش الأمراء البيزنطيين.

كان الجميع سيهاجم البيزنطيين على وفق التعليمات، أولاً ستقوم الوحدة الأمامية تحت قيادة سَارُوبَاتُو بغارة مفاجئة لإرباك العدو، ثم يتم القضاء على العدو بهجوم مباغت من دون إعطائه الفرصة أن يستجمع قواه.

شعر البيزنطيون بالتعب من طول طريق استغرق ساعات، فأراد العثمانيون أن يستغلوا هذا، وكان جيش البيزنطيين قد اقترب حينئذ منهم؛ فهُمَّ السيد عثمان بإرسال أحد الجنود لمحاورة العدو كما جرت العادة.

قال للرسول:

- قل لِنِقُولَا: لم نأتِ إلى هنا لمحاربتهم، فليثبوا إلى الحق، وليتركوا أراضينا أو يستسلموا، وإن أبوا إلا الحرب فأنتي "عثمان بن أَرْطُغْرُولُ غَازِي سيد عشيرة قَائِي"، لأضيقن الخناق على نِقُولَا، وعليه ألا يقع في يدي، فلو وقع، فحذار أن يطلب العفو.

ذهب الرسول بسرعة إلى جيش البيزنطيين، وأخبر نِقُولَا ما قاله السيد عثمان؛ وعندما سمع نِقُولَا الرسول، بدأ يضحك بصوتٍ مجلجل فوق حصانه، فاهتزَّ بدنه المتدثر بالدرع جميعه من ضحكاته العالية، ثم بدأ البيزنطيون جميعًا يطلقون ضحكاتهم، فالتفت نِقُولَا إلى مَنْ بجانبه:

- أسمعونها، عثمان ليس لديه نصف ما لدينا من جنود ويتحدّانا، اسمع أيها الرسول، اذهب إلى سيّدك، وقل له: مَنْ يتحدّانا نُطِخْ برأسه؛ فسارعوا بالاستسلام، وإلا فستحملون عواقب ذلك.

واصل آيا نيَقُولًا قهقهته...، وعاد الرسول إلى السيّد عثمان، وشرح له الموقف، فقال الأخير لَمَنْ حوله بصوت جهوري:

- لم يبقَ إلا الحرب، هيا أيها الأبطال!

قامت وحدة سَارُوبَاتُو بالهجوم على الجيش البيزنطيّ بسرعة شديدة على وفق الخطة المرسومة، فلم يُسمع في "دُومَانِيَج" إلا الأصوات المرددة: (الله أكبر! الله أكبر!) كان صدها القادم من جبل "يزجه" يُدَوِّي في الأرجاء كافة.

كانت هناك سحابة من الغبار في البداية، تلاها صليل السيوف، وأصوات القتال والأبواق ينفخ فيها البيزنطيّون، وكان الـ"قايون" يردّون عليها مكبرين مهللين، كانت الأصوات تحارب أولاً في السماء، ويحارب الجنود على الأرض.

بدأت المجموعة المهاجمة صفوف الأعداء أولاً في العودة بسرعة، وتعقبها رجال أمير "إينَاكُول" وأمير "قَزَاجَه حِصَار"، وعندما رأى البيزنطيّون تراجع جنود "قايي" صاحوا قائلين:

- جنود "قايي" يهربون، اركضوا لنمسك بهم هيا، وليأتِ مَنْ يريدون تقاسم الغنائم!

ثم سُمع صوت نيَقُولًا:

- اقصوا عليهم ولا تسمحوا لأحد منهم أن يهرب، وليعلموا كيف تكون عاقبة مَنْ يواجه نيَقُولًا!

ركض البيزنطيون بخيلهم غاضبين يتعقبون جنود "قايي"، لا أحد يعرف كم شخصاً من الـ"قايين" سيلقى حتفه على أيدي البيزنطيين وبسوفهم المستقيمة، ثم يأخذون الغنائم، بل ربّما يُبدون شيئاً من التفوق في ميدان القتال، ويحصلون أيضاً على الجوائز الثمينة!

كان للبيزنطيين حساباتهم، وللسيد عثمان حسابات أخرى...، تحير فجأة البيزنطيون الراكضون بخيلهم متعقبين مجموعة الـ"قايين"؛ إذ ارتدّ الهاربون فجأة، فوقف البيزنطيون أيضاً، إنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة، لم يُسمع سوى صوت الرياح تهبّ من جبل "يزجه"، وصهيل الخيل، أراد القائد البيزنطي أن يرفع سيفه في الهواء ويصوبه قائلاً:

- اهجموا!

لكن قبل أن يصيح، إذا بالجندى بجانبه يلفت انتباهه إلى شيء ما، لقد أغلق الـ"قاييون" الطريق خلفهم، وهم الآن يحاصرونهم من الأمام والخلف، في هذه الأثناء ظهر الرماة الـ"قاييون" أيضاً على ميمتهم وميسرتهم، لقد وقع البيزنطيون في الفخّ، فانطلق عثمان غازي قائلاً:

- هيا، يا الله!

وانطلق قُونُوزُ أَلْب، وأَيْقُوْتُ أَلْب، وعبد الرحمن غازي، وطُوزْغُوْتُ أَلْب الذي شقّ صفوف العدو مع رجاله كالنسر، تمّ القضاء تماماً على جنود أمير "إيناكُول" وجنود أمير "قَرَاَجَه حِصَاز"، وفرّ نيَقُولاً مع بعض الفرسان، وأنقذ نفسه من الموت بصعوبة؛ أما السيد عثمان، فقد ظهرت السعادة على وجهه، وهو يردد قائلاً:

- الحمد لله!

ثُمَّ هَتَأَ قَادَتَهُ فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ وَاحِدًا تَلُو الْآخَرَ، هُنَا أُيْقُوثُ أَلْب،
وَقُونُوزُ أَلْب، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ غَازِي، وَأَخَاهُ كُونْدُوزُ أَلْب، ثُمَّ رَاحَ يَبْحَثُ
بَعَيْنِيهِ بَرَهَةَ عَنِ سَارُوبَاتُو، وَقَالَ:

- تُرَى أَيْنَ هُوَ؟

- أُيْقُوثُ أَلْب!

- لَتَيْكَ يَا سَيِّدِي.

- أَيْنَ أَخِي سَارُوبَاتُو؟

- لَمْ أَرَهُ بَعْدَ الْهَجُومِ الْأَوَّلِ يَا سَيِّدِي.

- هَلْ رَأَيْتَهُ يَا قُونُوزُ أَلْب؟

- كَلَا يَا سَيِّدِي.

- تُرَى أَيْنَ هُوَ؟

القلب ينفطر

بينما كان أفراد عشيرة "قايي" يستجمعون قواهم للعودة إلى "سوغوث"، إذ جاء أحد الجنود راكضاً بفرسه مثيراً الغبار حوله...، إنه شاب يافع، طرّاً شاربه حديثاً، يلهث من التعب، ترجل بسرعة، وذهب راكضاً إلى السيّد عثمان.

نادى في البداية قائلاً:

- سيدي!

لم يكن يستطيع التحدث، فحاول أن يأخذ نفساً عميقاً، لكنّه لم يستطع، كان جسمه كلّه يرتجف، ولونه قد شحب، ثم حاول التحدث مجدداً:

- سيدي...، سَارُوبَاتُو...

رفع السيّد عثمان حاجبيه الأسودين الطويلين، ونظر للشاب.

- ماذا حدث، تكلم بسرعة يا بُني!

- سيدي، سَارُوبَاتُو...، سَارُوبَاتُو استشهد!

فصرخ الـ"قاييون" كلّهم أجمعون صرخة ألم، وتأوّهت الأرجاء بصوت يدوي في جبل "يَزَجَه"، ويرتفع من هناك إلى الغاب، ومنها إلى السماء، ثم رثاه أفراد "قايي" رثاءً تثنّ منه الجبال والحجارة، دعاء أبديّ إلى الخالق، بعضهم خرّ صريعاً، وبعضهم استند إلى شيء بجانبه، سقطت السيوف من الأيدي، وألقيت التروس، الأبطال الذين كانوا قبل قليل ذوي بأس شديد على البيزنطيين، ها هم ينهارون لخبر، خبر يمزق الفؤاد...

سأل السيد عثمان الشاب محاولاً إيقاف دموعه المنهمرة:

- أين جثته؟

- قرب مكان الهجوم الأول.

ركض السيد عثمان قافزاً على حصانه إلى المكان، وتبعه جميع أفراد "قايي" جميعاً.

كان سَارُويَاتُو سَاوْجِي يرقد تحت شجرة صنوبر، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة، ربّما كانت سعادة التحليق من الدنيا إلى الجنة، وربّما كانت سعادة التضحية بدمه ونفسه في سبيل إعلاء راية الإسلام.

نظر السيد عثمان إلى الشهيد، وترجّل، لم يُسمع سوى صوت نحيبه.

- أخي!

كان جسد سَارُويَاتُو كلّهُ مخضباً بالدماء، لكنّ وجهه -ذلك الوجه المضيء- كان شديد النقاء، هل غسّلت الملائكة وجهه، أم كان يتألّق سعادة؟

لم يكن الفؤاد ليتحمل هذا المشهد؛ شعر السيد عثمان بالحزن والأسى حيال ما رآه، واحتضن جثة الشهيد بشدّة، وبكى بكاءً مريزاً، كان معه أفراد "قايي" الذين ضيقوا على العدو ميدان القتال، وكما كان الجبل والحجر يتنان أثناء القتال بالتكبير والتهلّيل فقد أخذَا يتنان الآن من البكاء المريز.

آه على سَارُويَاتُو سَاوْجِي! لقد استشهد ابنه العام الماضي، كان يتذكّره دائماً، والآن لحق به وذهب إلى جواره!

ثم جاء كُونْدُوْزُ أَلْب...، كُونْدُوْزُ أَلْب الذي لا تعجزه الجبال، كُونْدُوْزُ أَلْب الذي هو مثال الإقدام والشجاعة...، كُونْدُوْزُ أَلْب الذي هو شجرة عظيمة...، كُونْدُوْزُ أَلْب أكبر أبناء أَرْطُغْرُوْزُ غَازِي...، وظلّه الحي...

انهار كُونْدُوْزُ أَلْب بجانب السيّد عثمان، عضّ شفّتيه وزمّ عينيه كي لا يبكي، إلا أنّه لم يتمالك نفسه وبكى، انهمرت الدموع من كُونْدُوْزُ أَلْب على أخيه المفارق للحياة، دموع كانها بارّ جليدي يسقط من الجبل؛ ورغم أنّ الشهداء يدفنون بلا غسل وكفن فإن الأخوين غسّلاه بدموعهما.

استمرّ هذا المشهد دقائق بل ساعات، إنّ نجمًا آخر قد أفل، رحل سَارُوْبَاتُوْ بطل ميادين القتال، والد الشهيد بَائِقُوْجَه، زوج السيّد مهليّكَة، رحل ككلّ شيء فإنّ، وكما سيرحل الجميع...، لكنّه لم يرحل إلى العالم الآخر مثل الجميع، فقد أخذ معه سترته وسرواله وعمارته المخضبة بالدماء، رحل بملابس سيستعرضها دليلًا عندما يُسأل لدى المولى ﷺ: "ماذا فعلت في الدنيا؟".

وضعوا جثته على صهوة حصانه المرّة الأخيرة وربطوه، آه على سَارُوْبَاتُوْ! كيف كان يركض بحصانه مثل الريح كأنّما يطير، أما الآن فإنه يوضع على الحصان للمرّة الأخيرة مربوطًا.

رحلوا إلى "سُوْغُوْث"، وفي الطريق كان عثمان غازي يفكّر ماذا سيقول للسيّد مهليّكَة.

وصلوا "سُوْغُوْث" قبيل صلاة العصر، فوجدوا العشيرة كلّها تنتظرهم على حافة الطريق، كان مئات الفرسان يتوافدون في صمت وهدوء كنه دافق، وكانت السيّد مهليّكَة والسيّد مَلُحُوْنُ أيضًا في الخارج ومعهما نساء العشيرة جميعهنّ وأطفالها وشيوخها، كان الجميع ينتظرون

في هذه الأثناء حضر أَدْبَالِي، وذهب إلى السَّيِّد عثمان أولاً.

- البقاء لله.

- البقاء لله يا أستاذي.

ثمَّ صلى أَدْبَالِي بهم صلاة الجنّازة، ودفنوا سَارُوبَاتُو سَاوَجِي في "سُوغُوت" بملابسه المخضبة بالدماء، وقد غاب شجاع مثل النجم، نجم سيحيا في القلوب...

رُزِقَ عثمان غازي في تلك الأيام بطفل، وأسماه سَاوَجِي، كي يحمل اسم عمه الشهيد ومجده.

الانحلال إلى "سَقَارِيَا"

دخلت "قَرَاَجَه حِصَّاز" تحت سيطرة عثمان غازي بعد الانتصار في معركة "دُومَانِيْج"، ولما وصل عثمان غازي مع رجاله إلى "قَرَاَجَه حِصَّاز"، كان معظم مَنْ في المدينة قد هاجروا، ولم يبقَ سوى بعض العائلات.

وبينما يتجول السيد في المدينة، إذ جاءت إليه امرأة يزنطية عجوز ومعها ابنتها، فخرّت عند قدمي عثمان غازي باكية:

- أتوسّل إليك، لا تقتلونا!

أقام عثمان غازي المرأة من الأرض، فواصلت المرأة حديثها:

- سأعطيك ابنتي هاتين، لكن أتوسّل إليك لا تقتلونا.

- أيتها المرأة، هل سمعتِ قبل ذلك أنّ الـ"قَايِين" مَسّوا الأطفال أو النساء أو الفتيات بسوء؟

- كلا، لم أسمع.

- إذا لماذا تتوسّلين؟ لتبقى بناتك معك؛ وليعشن أينما يردن، وعلى الدين الذي يردن، ولا تقلقن على أنفسكنّ؛ فأهل "قَايِي" يتبعون مبادئ الإسلام الذي لا يظلم أحداً.

أطلقت المرأة وابنتها صيححات ابتهاج، وعُدن إلى منزلهنّ.

وعند تجوله في المدينة لفت انتباهه أحد الأبنية، بناء مرتفع، في جانبه برج، وعليه صليب ضخّم، عرف أنّها كنيسة، فنَادى أحد رجاله:

- طَوْزُغُوثُ أَلْب، اصعد وأنزل ذلك الصليب من هناك.

- أمرك يا سيدي.

- من الآن فصاعداً سيكون هذا المكان جامعنا، غطوا في الحال الرسوم بداخله ونظفوه بأسرع ما يمكن لترفف هنا راية اسم الله تعالى والرسول ﷺ.

- أمرك يا سيدي.

- لن تتحول أية كنيسة أخرى إلى جامع سوى هذه الكنيسة، فلن تُمسَّ شعرة من البيزنطيين الباقين في هذه القصة، من الآن فصاعداً أرواحهم وأملأهم وأعراضهم أمانة عندنا، لن نتدخل في دين أحد أو لغته، لقد تعلّمنا من أجدادنا كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٦/٢)، وإذا عشنا بتعاليم ديننا، فإنهم سيستجيرون بنا؛ فلا يتدخل أحد في شؤونهم.

اجتمع القادة كلهم في خيمة القيادة في "سُوغُوث"، تشاوروا فيما سيفعلونه بعد ذلك.

عبد الرحمن غازي:

- سيدي، يجب أن نلنق نيقولاً درساً أكبر، وإلا فلن نُحَكِّم السيطرة على هذا المكان.

- معك حقّ -يا غازي- لن نهناً بالراحة طالما لم نقض على شرّ نيقولاً، لا نستطيع أن نفكر في نيقولاً دائماً مثل عقصة تترجّع على رؤوسنا.

أمسك عثمان غازي بكتفي مِيخَال وقال:

- الوفاء من أخلاق ديننا - يا مِيخَال - لا تقلق، فعشيرتك هي عشيرتنا،
وهي في أمانة الله وأمانتنا من بعد.

- شكرًا سيدي.

بعد أن خرج مِيخَال، استدعى عثمان غازي كلًا من قُونُوزْ أَلْب
وَأَيُقُوثْ أَلْب.

- لبيك سيدي، لقد استدعيتنا.

- قُونُوزْ، أَيُقُوثْ، لقد وافق حاكم "بَلَجِيك" على اقتراحاتنا، ما بعد
ذلك يقع على عاتقكم؛ فأعدّوا في أسرع وقت صناديق الهدايا الأربعين
للعرس.

- أمرك سيدي.

أمر مِيخَالُ على الفور بإغلاق باب القلعة، وتم الاستيلاء على قلعة
"بَلْجِيك" في مدّة قصيرة جدًّا وبسهولة، كان مِيخَالُ يقول في نفسه:
"عثمان غازي، يا له من رجل ذكي جدًّا".

- لن تستطيع أن تقبض عليّ أو تستحوذ على قلعتي يا عثمان.
 - أنا عثمان بن أَرْطَغْرُوثَ غَازِي سَيِّدَ عشيرة "قَايِي"، والاستيلاء على هذا المكان فرض عليّ.

كان يَقُولُ يقوم بمساعيه الأخيرة، ويلعب بورقته الرابعة، ولم تكن "إِينَاكُولُ" في حال يسمح لها بالمقاومة، وفي النهاية لم تستطع القلعة أن تصمد أكثر من ذلك، واستسلمت للـ"قَايِين".

دعا سيد "قَايِي" وابتهل كثيرًا، وكان يحمد الله، وبهذا الفتح انتهى إزعاج يَقُولُ وخطر "إِينَاكُولُ"، وبهذا النصر قد وفى عثمان بوعد أعطاه لـأَرْطَغْرُوثَ غَازِي عندما كان طفلًا.

بدأ الناس يطلقون على الـ"قَايِين" (أبناء عثمان)، كانت أعمال العشيرة التي يرأسها سَيِّدُ شجاع، قد فاقت خيالهم، فبدأت إمارة عثمان تنمو بسرعة على إثر فتح "إِينَاكُولُ"، وكان السَيِّدُ الشجاع يردّد نصيحة أَدْبَالِي له:

- لا تَمْسُوا دين الأهالي في "إِينَاكُولُ"، ولا تتعرّضوا لكنائسهم، ولا تسلبوا حرّية أحد، ولا تتعاملوا مع أحد سوى بالعدل؛ فأهل هذا المكان صاروا أمانة لدينا، امنحوا الأرض للتركمان الوافدين إلى أراضينا، فليأتوا وليستقروا.

القصر

كانت غنائم عثمان غازي قد ازدادت كثيرًا، وقسّم قُونُوزُ ألب الغنائم ووضع الممتلكات في الخزينة، ثم جاء إلى السيد بعد العصر.

- لقد وزعتُ أربعة أخماس الغنائم بين الجنود كما أمرتم -يا سيدي- ونقلتُ الباقي إلى الخزينة من أجل الحملات.

- شكرًا يا قُونُوزُ.

جال قُونُوزُ ألب بطرف عينيه في خيمة السيد، كان في أحد الجوانب أربعة فُرُش أرضية أو خمسة، وخلف الفرش عدة وسائد كلیم منقوشة، ومصباح معلق في عمود الخيمة، وعلى جانب المصباح سيف، وفي أحد الأركان ترس، وجعبة بها عشرون أو ثلاثون سهمًا، وفي مدخل الخيمة إبريق للوضوء، وحوض نحاسي، وأيضًا مكان صغير مستقلّ تقيم به أسرة السيد.

- سيدي، إذا أذنتُ أريد أن أسأل عن شيء.

- تفضل، يا قُونُوزُ ألب.

- رأينا في "قَرَّاجِه حِصَّاز"، وفي "مُودَانِيَا"، وفي "بِلَجِيك"، وفي "إِيَتَاكُول" أن الحكام والأمراء يعيشون في قصور كبيرة جدًا، فلا يشعرون بالبرد شتاءً أو بالحرّ صيفًا؛ فهم في رغد وراحة، وفي رأيي -ما دام سيد "قايي" ليس أقلّ منهم شأنًا- فلماذا لا تزال تعيش في الخيمة؟

- أَيْةُ أَخْبَار؟

- الأمور ليست على ما يرام يا سيدي، عندما قام المغول الإيلخانيون بالهجوم تَرَكَ الحاكم السلجوقي علاء الدين الثالث عاصمته وهرب، وترك تاجه وعرشه في مأزق.

- تعني أَنَّ الاستقرار والنظام في الأناضول الآن سيظلّ مزعزعا.

- سيدي يعرف الأمر على حقيقته أكثر مني.

ميلاد دولة

في الغد جمع عثمان غازي قاداته لمناقشة آخر التطورات، وقال لهم:

- أيها القادة، نحن قوم نؤمن بقول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢/٢١٦)، حفظ الله تعالى أمتنا وذريتنا!

- آمين!

- لقد انهارت دولة السلاجقة في الأناضول، لكن لن يستطيع المغول البقاء مدة طويلة هناك؛ فهم مثل السيل؛ إذا لم تستطع التثبيت بمكان قوي، فسيقضون عليك، لكن ما دمنا استمسكنا بحبل الله أولاً ثم ببعضنا، فلن يستطيع أحد أن يجتاحنا، بل أن يحركنا من مكاننا ولو هاجمنا المغول أو أكثر الكفار طغياناً؛ إن إماره "قايي" تكبر، و"سوغوث" تضيق علينا الآن، وفي رأيي يجب الانتقال إلى "بلجيك" من الآن فصاعداً، إذا وافقتم أنتم أيضاً فلنتقل إلى "بلجيك".

آفجه قوجه:

- إرادتكم هي مطلبنا، وستكون "بلجيك" مركزنا الجديد، وستكون سبيلاً إلى الخير إن شاء الله.

- إن شاء الله!

لم يعترض أحد من السادة الحضور في الاجتماع.

من بعدي، وكانت أمنية أبي أن يصبح الـ"قايون" دولة واليوم خطأ الـ"قايون" أولى الخطوات كي يؤسسوا دولة، فعسى ألا يخذلني الله تعالى وإياكم!

ابتهج الحشد أكثر لهذه الكلمات، وبدأت الطبول تُقرع بحماسة أكبر، وكأنّ الجميع كان يحتفل باستقلال عشيرة "قايي".

وعلى وفق عادة للـ"أوغوز"، أجلسوا عثمان غازي على لبدة بيضاء، وأمسكوا طرف اللبدة ورفعوه تسع مرات ثم أنزلوه، ورفع الجمع سيوفهم في الهواء وهم يهتفون بأعلى أصواتهم "يحيا عثمان غازي! يحيا عثمان غازي!"، ثم مثل سادة العشيرة واحدًا واحدًا بين يدي عثمان غازي وأقسموا يمين الولاء.

وقف السادة بين يديه يقولون: "سنظلّ نحن وعشيرتنا أوفياء لكم ولإمارتكم".

تقلد عثمان غازي سيفه والفقير دوزسون يدعو، وهذا يعني أنّ السيّد هو الحاكم الوحيد، وبدأ الجميع يؤمنون على دعاء الفقير دوزسون:

- جعلك الله أنت وإمارتك على طريق الحقّ والعدل، وكتب لك الجهاد دائماً في سبيل الدين، بارك الله لك ولعشيرتك في الإمارة!

الفتوحات الجديدة

أصبحت إمارة بني عثمان إمارة مستقلة الآن، وقام عثمان غازي في الاجتماع الأول بتقسيم الأراضي المستولى عليها على وفق العادة الأوغوزية.

- عندما كان أجدادنا الأوغوز يستولون على أرض يقومون بتعيين الإداريين من أفراد السلالة الحاكمة على هذه الأراضي، ومن الآن فصاعدًا سيشرّف أخي الأكبر كوندوز ألب على إدارة "أسكي شهيز"، وولدي أوزخان على إدارة "قزاجه حصار"، وحسن ألب على إدارة "يازحصار"، وطوزغوث ألب على إدارة "إيناكول"، والضرائب من أنحاء "بلجيك" هي لأستاذي وحمي الشيخ أذربالي، ومن الآن فصاعدًا سأقيم هنا في "يني شهيز" (Yenişehir)، وسيكون معي أيضًا ابني الصغير علاء الدين.

بعد أن أنهى عثمان غازي هذا التقسيم واصل اجتماعه قائلاً:

- سنعمل ما يلزم من أجل تنمية "يني شهيز"، ولئيبَ أولاً الجامع والحمامات.

- أمرك سيدي.

- أيها الشجعان، أرى أن تكون "إيزنيك" (Iznik) "أ" من الآن فصاعدًا أول أهدافنا، فما رأيكم؟

أعرب الحضور عن استحسانهم للقرار، لكن حسن ألب قال:

- سيدي، "إيزنيك" هدف جيّد، لكنني أحسّ بأنك تخفي عنا هدفك الأساسي.

- في رأيك ما هدفني يا حسن؟

- "بُورْصَة".

- إذا شاءت الأقدار...، فنحن مهتمتنا الخروج للجهاد، لكن النصر والهزيمة أمر يعلمه الخالق بشرط ألا نبتعد عن رضا الله، ربما سيكون مقدراً اليوم الاستيلاء على "إيزنيك" وغداً "بورصة"، من يعلم لعل ذلك يكون...

لم يكمل عثمان غازي كلامه، واستغرق برهة في تفكير عميق كأنه غائب في تلك اللحظة، فناداه آقچه قُوجَه:

- سيدي، لقد استغرقت في التفكير، ولم تفصح عن مقصدك الأخير.

- آقچه قُوجَه، لقد كنت أوفى شخص لوالدي، إذا تعرف مقصدي الأخير.

- كيف لا أعرفه يا سيدي! أعلم أن مقصدك هو أن تنال بشري الرسول ﷺ هدفك هو فتح القسطنطينية يا سيدي.

- لقد علمتها يا آقچه قُوجَه، علمتها.

نظر الحاضرون بعضهم إلى وجوه بعض، وقالوا بصوت واحد:

- القسطنطينية!

بدأت على الفور محاولات حصار قلعة "إيزنيك"، لكن القلعة كانت تقاوم...، وكلما مرّت الأيام، كان انزعاج عثمان غازي يزداد، لم يكن ما يزعجه على الإطلاق هو العجز عن فتح القلعة، وإنما كان داخله إحساس بأن الأمور ستسوء.

لم يمضِ وقت طويل حتى اضطرّه خبر إلى تغيير كل شيء من جديد،
لقد وصل رسول يحمل لعثمان غازي أخبارًا حول آخر الأحوال.

- سيدي، الأمراء البيزنطيون المجاورون يستعدّون لحملة علينا.

- حملة؟

- أجل يا سيدي، حتى إنّ بيزنطة أيضًا اتّحدت معهم.

- يعني أنّ بيزنطة أيضًا مشاركة في الأمر!

- سيرسلون ألفي جندي.

توقّف السيد عثمان برهة، وفكّر، ثمّ واصل الحديث مع الرسول
بشكل هادئ:

- أتعرف أيّ الأمراء البيزنطيين سيشنّ هجومًا علينا؟

- حاكم "بوزصة"، وأمراء "كستل" (*Kestel*)، و"بدنوس" (*Bednos*)،
و"كيته" (*Kite*).

- هذا يعني أنّ أعداءنا يرغبون في القضاء علينا هذه المرّة.

- سيدي يعرف ما الصواب.

- إذا علينا أن نعمل كل شيء للتصدّي لهذا الهجوم الغادر، شكرًا
لك، يمكنك أن تذهب.

أحاط الضيق بعثمان غازي، وعقد ما بين حاجبيه بشدّة، واكفّهز
وجهه، وأخذ يفكّر محدثًا نفسه: "ماذا نستطيع عمله تجاه هذا العدد
الكبير من الأعداء؟" أخبر رفاق دربه عمّا ينوي الأعداء فعله، وفي نهاية
الاجتماع أعلن عثمان غازي قراره.

- سنفك حصار "إيزنيك" فوراً، ونستعدّ للحملة، فلنقابلهم قبل أن يهجموا، وقبل أن يتوغّلوا أكثر في أراضينا.

حلّ الليل على "يَنِي شَهِير"، ولم يكن يُسمَع سوى صوت بعض الحشرات، وكانت هناك عينان لم يغمض لهما جفن كأنما تتحدّيان النوم، عينا عثمان غازي المسهّدتان.

عندما استيقظت السيدة مُلْحُونُ قليلاً، لاحظت في ضوء المصباح المرتعش أنّ زوجها مستيقظ.

- ألم تنم بعدُ يا عثمان؟

- إنهم يفسدون علينا النوم، يا عزيزتي.

- وما الذي يورقك؟

- أظنك سمعت أن الحكام البيزنطيين قد اتحدوا، وتلقّوا الدعم من بيزنطة للقضاء علينا.

- أعلم، لكن إذا دبّر الجميع أمراً، ألا يتم في النهاية ما أراد الله؟

- صحيح.

- إذا، هيا نَم يا سيدي، أنت دائماً في سبيل الحق، وأنا أوْمَن أن الله لن يتخلّى عنك، وأسأل الله أن يعينك.

- آمين يا مُلْحُونُ، آمين!

معركة "قُويُون حِصَار"

في أواسط شهر تموز/يوليو، كانت أنحاء البلاد تتلظى من الحرارة، وكان جنود عثمان غازي يتبادلون مع أسرهم كلمات الوداع وطلب المسامحة، بعضهم كان يودّع زوجته، وبعضهم كان ينصح أبناءه بيز أمهاتهم، وبعضهم يقبل أيادي الأمهات ويطلبون دعاءهن بالخير قائلين: "لا تحرمينا من دعائك يا أمي"، "هيا في أمان الله".

ودّع عثمان غازي السيدة مَلْحُون، وكان القلق في عيني مَلْحُون، وسال الدمع منهما، لم يكن قلقها على زوجها فحسب، فقد شارك هذه المرة في الحملة ابناها أوزخان وعلاء الدين... أستودعكم الله جميعاً.

اتجهوا إلى "قُويُون حِصَار" (Koyunhisar) من الجهة الجنوبيّة لبحيرة "إيزنيك"، وقد تماوجت ألوان الشمس المشرقة عليها، وكان عثمان غازي متوتراً، ولم يكن يريد التفكير في الهزيمة؛ لأنّها قد تؤدي إلى نهاية آماله، رأى كُونْدُوزُ أَلْب توتر أخيه فذهب إلى جواره:

- خيراً يا سيدي، لقد خضنا حتى الآن كثيراً من الحروب والمعارك، فما سبب قلقك الشديد الآن؟

- لو كنّا نحارب عدوّاً واحداً، لكان الأمر سهلاً، لكنّ مثل هذه التحالفات تقلقني يا أخي.

- أيّها البطل، الله أكبر، لا يهمنّا النصر أو الهزيمة ما دمنا نقوم بأعمالنا كلّها لرضا الله تعالى، فإن استشهدنا فسنكون غزاة في سبيل الله، فلا تحزن.

- شكراً يا أخي.

عندما تحدث عثمان غازي مع أخيه الأكبر ارتاح قليلاً، وجمع جنوده وتحدث إليهم:

- أيها الشجعان، حربنا الآن لا تشبه ما سبقها، ولن نقوم بخطة "طُورَان" (Turan) "٣٣" أو بنصب كمين؛ لأنّ عدد العدو كبير؛ فلا يمكن القضاء عليه بكمين؛ وعندما يأتي الجنود البيزنطيون إلى هذا الميدان، سنشنّ هجومًا مفاجئًا من الجهات الأربع؛ فقفوا متقاربين قدر الإمكان، فلن يستطيعوا الاقتراب منا كلّما كنّا مجتمعين، وسيشرح لكم قادتك ما ستفعلونه، إما أن يستمرّ الـ"قايون" بهذه الحرب، وإما أن يهلكوا، أعانكم الله جميعاً، وبارك غزوتكم!

أحدثت أصوات جنود "قايي" دويًا في الميدان وهي تردد "آمين"، ولم يكن البيزنطيون قد وصلوا إلى "قُويُون حِصَاز" بعد، فأرسل عثمان غازي رسولاً قبل أن يأتوا كي لا يخرق العادة، وطلب منهم أن يتراجعوا، وخيّرهم بين العودة أو الاستسلام؛ فأجاب البيزنطيون الرسول بإهانة؛ وصل الرسول إلى "قُويُون حِصَاز" قبل القوات البيزنطية وشرح الحال لسيّده.

- سيّدي، يقول الحكام البيزنطيون: "لماذا نستسلم لكم؟ حقيقةً أنتم من عليكم أن تفكّوا حصار "إيزنيك" وأن تستسلموا في الحال".

- إنّنا لا نستسلم إلا لله، لم نر في هذه الدنيا الفانية قوة يمكن أن تجعلنا نستسلم، هدفهم واضح، اللهم لا تخذلنا!

- آمين.

- إليّ أيها القادة.

- هيا أيها الأبطال؛ الله أكبر، الله أكبر!

شئت جيش عثمان غازي صفوف العدو.

أما "يَنِي شَهِير"، فكان الدعاء يرتفع فيها، والأدعية تتوالى على الشفاه مرددة: "اللهم انصر جيشنا"، ويُختم القرآن مع الأدعية، وكانت النساء بأغظيتهن ناصعة البياض يتضرعن إلى الخالق، وكان الشيخ ذوو اللحى البيضاء يصلون صلاة الحاجة، والأطفال الصغار يدعون لأبائهم بأكفهم الصغيرة؛ وكما كانت القلوب تخفق معاً، كان صدى الأدعية يتردد على الشاكلة نفسها، وكانت الأيدي تُرفع إلى السماء تطلب النصر: "اللهم لا تخز جيشنا أمام الكفار"؛ كانت الأيدي المرفوعة بالدعاء في "يَنِي شَهِير" ترتفع على الكفار في "قُويُون حِصَار".

أخذت القوات البيزنطية تهقر رغم أن أعدادهم تفوق الـ"قائين" بكثير، ولم يكن عثمان غازي يتراجع عن ملاحقتهم، كانت ملاحقة دموية، دفع ثمنها كثير من الشهداء...

عندما لاح من بعيد جبل "دِينْبُوزُ" (Dinboz)^(٣٤)، أدرك عثمان غازي أن الحرب أوشكت تنتهي؛ وكان الحكام البيزنطيون قد جاؤوا بصلف كبير إلى ميدان القتال، فإذا بهم يبحثون الآن عن مهرب، ومن استطاع منهم الفرار لجأ إلى قلعة "إيزنيك"، وتشئت الجيش البيزنطي، وصارت "قُويُون حِصَار" أول نصر حقيقي لعثمان غازي على البيزنطيين، وكان عثمان غازي يتصبّب عرقاً، وتذكر آيدو غُدو، ترى هل ما زال على قيد الحياة؟

علا رثاء في آن واحد من بعيد، رثاء يتردد صده من جبل "دِينْبُوز".

سأل قائلاً: "ماذا هنالك، ما هذا الرثاء؟".

الخطر المغولي

"أيها الأوغاد العاجزون! عاقبكم الرب جميعًا".

عندما صاح الإمبراطور البيزنطي "أندرونيكوس" (*Andronikos*) بصوت يدوي في قصر بيزنطة، كان الواقفون أمامه ينتظرون في خوف، فواصل الإمبراطور الصياح في غضب:

- بيزنطة تنهار، الأراضي التابعة لي تضيق واحدة تلو الأخرى، وعشيرة رُحالة تشَتّ قواتنا في "قُويُونُ حِصَاز"، ولا نستطيع أن نفعل شيئًا، و"إيزنيك" تخرج عن سيطرتنا، وصار الأتراك بحرًا يحيط بي، يريدون أن يغرقوني، وأنتم تقفون أمامي مثل تماثيل روما، جِدُوا حَلًّا لهذه المشكلة وإلا....!

نظر الوفد بعضهم إلى بعض، ثم تحدّث أحدهم:

- سيدي الإمبراطور، لديّ فكرة.

- ما هي؟

- نطلب المساعدة ضد عشيرة عثمان والأتراك الآخرين من دولة أقوى منهم.

- وما الدولة التي ستساعدنا؟

- سيدي، إذا زوجتم أختكم "مارا" (*Mara*) من "خدابنده" (*Hüdabende*) حاكم المغول الإيلخانيين، سنحصل على دعم المغول، وهكذا لن يستطيع الأتراك الاستحواذ على أراضينا.

- نعم، ليست فكرة سيئة على الإطلاق.

بعد أربعة أشهر، حكى الرسول هذا للمجلس الاستشاري برئاسة عثمان غازي قائلاً: رَوجَ الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس أخته من الحاكم الإيلخاني، وسيتلقى المساعدة العسكرية من الإيلخانيين؛ فعلت الأصوات بين الحاضرين مرّدة:

- يا ويلتاه!

تنهّد عبد الرحمن غازي وهمهم قائلاً:

- الله أعلم، لكنّ نهايتنا قد حانت.

وأطرق الآخرون، وتأوّه آفَجه قُوجَه قائلاً:

- لقد هربنا من ظلم المغول وجئنا هنا، لكنّ هذا الظلم لن يتركنا.

هذا الخبر عصف بأجواء باردة في الاجتماع، فعبست الوجوه وخيم عليها التشاؤم، وصمتوا جميعاً واستغرقوا في التفكير...، كان عثمان غازي يرى الحال الذي آل إليه رفاق سلاحه فقال:

- أيّها الرفاق، الله أكبر وهو معنا، فحذارِ أن تقنطوا من عون الله،

أعلم أنّ المغول كانوا دائماً مزعجين لنا، لكنّ أول ما سنقوم به من عمل الآن هو اتخاذ التدابير اللازمة حيال هذا الخطر، وسنأخذ جذرنا أولاً، ثم نتوكل على الله، وأعلم أيضاً أنّ المغول ليسوا المغول القدامى، فأولئك الذين أبعدوا أجدادنا عن أرضهم ووطنهم ليس لهم وجود الآن؛ فالمغول مثل مريض على شفا الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة، وإنّي تأكّد لديّ أنّ لن يصيبنا خطر منهم بإذن الله.

- اللعنة!

كان يستمع للرسول القادم من المغول، وكلّما تحدث الرسول اشتدّ غضب الحاكم الهرم.

- سيدي، لقد قال صهركم خدابنده خان: إنّنا نحارب المماليك الآن، ولا نهذاً بسبب الصراع مع التمردات الداخليّة؛ فلا يمكننا المجيء إلى "إيزنيك" الآن، أبلغوا سلامي إلى الإمبراطور.

قال الإمبراطور صائحاً:

- عاقبه الربّ، متى يأتي لمساعدتي، أعندما يستولي الـ"قايون" على القسطنطينيّة؟

ثمّ أمر بطرد الرسول.

وسرعان ما ألقيت على مسامع عثمان غازي أخباراً ساوّة: "المغول يحاربون المماليك، ولديهم اضطراب في شؤونهم الداخليّة، ولن يستطيعوا المجيء إلى "إيزنيك"؛ ولما سمع هذه الأخبار تنهّد وقال في نفسه: لقد حان أوان التوجّه نحو الأهداف الأخرى.

صار طريق "إيزميث" ممهّداً بعد حرب "قويون حصار"، وتمّت فتوحات جديدة، لكنّ المدينة التي في قلب عثمان ليست هذه، لقد صارت له عشقاً وحلماً، وصارت حبّاً زمردياً في الفؤاد.

اعتناق ميخال غازي الإسلام

جاء ضيف إلى خيمة عثمان غازي في "بني شهيز"، فأمر بإدخاله؛
دخل كوسه ميخال الأصلع الأتظ بوجهه المشرق الباسم.

- هل تأذن لي يا سيدي؟

- تفضل يا ميخال غازي، شرفت.

- عساكم بخير يا سيدي؟

- شكراً، الحمد لله، ليس لدينا مشكلة سوى أننا لا نُعنى بهذه الدنيا.

- سيدي، لا أريد أن أهدر وقتكم، أريد أن أفضي إليك بهمي.

- تفضل.

- سيدي، لدي هم يزعجني سنوات طويلة ويذيب روحي مثل شمعة،
إنني أقف بجانبك منذ سنوات يا سيدي، ولقد دافعت عني وأنقذتني
مرات كثيرة، ولقد شاركتُ معك في حملات كثيرة، وحضرت كثيراً من
اجتماعاتك.

- صحيح...

- بعد أن عرفتُك رأيت الإخلاص والتسامح الحقيقيين، ورأيت
تضحياتك من أجل دينك، ورأيت استشهاد أبناء إخوتك وأخيك الأكبر
في هذا السبيل.

صمت عثمان غازي، وذهبت عيناه إلى السيف المعلق على عمود الخيمة، واستغرق في التفكير، وواصل ميخال غازي حديثه.

- سيدي، لقد عرفْتُ الحكام البيزنطيين والملوك والأباطرة، لكنَّ أحدًا منهم لا يستطيع أن يمضي عمرًا في خيمة، ولا يفكر أحد منهم في رعيته.

- لا أقيم وزنًا لأشياء لم تولد معي ولن أستطيع أن آخذها معي عندما أموت، فما الفرق بين عيشي في قصر أو في خيمة؟

- أنت تثبت عظمتك مرّة أخرى يا سيدي.

- ماذا تريد أن تقول يا ميخال غازي؟ أتريد أن تمدحني في وجهي فأغترّ وأعظم نفسي؟

- كلا يا سيدي، سأختصر الحديث في هذا السؤال: تُرى ما سبب استمرارك في حياة بهذا الشكل؟

- ميخال غازي، الناس يطلقون علينا "غازي"، وهي تعني المحاربين في طريق الغزو...، لن نغترّ بهذه الدنيا القصيرة الفانية ونتغير، نجتهد للقيام بما يأمرنا به ديننا.

- أعلم يا سيدي، وأعلم أيضًا أنَّ ما تقوم به متعلّق بفهمك لدينك وحياتك، لقد رأيتُ -يا سيدي- حقيقة دين الإسلام، وكيف تطبقه في حياتك، رأيته في حبّك للناس، ومودّتك، وتسامحك، وتواضعك، وصدقك، وإخلاصك، فإذا قبلت -يا سيدي- فإنّني أيضًا أريد أن أسلم.

نهض عثمان غازي عن الفراء، فأمسك ميخال غازي من منكبيه، ونظر إلى وجهه المشرق وعانقه.

- يا كُوسَه ميخال، لقد أثرت مشاعري، وما دام هذا قرارك، فإنك من الآن فصاعدًا أكثر من صديق، أنت أخي، أخي في الإسلام.

اغرورقت عينا ميخال بالدموع، لقد رأى بكاء الرجال والسادة عندما جاور الـ"قايين"، وما هو أيضًا يبكي، كانت دموعه تنساب كينبوع يحاول أن يجد سبيلًا بين الأحجار، ثم مسح دموعه وحاول الابتسام:

- سيدي، من الآن نحن صديقان حقيقيان أليس كذلك؟

- لماذا تسأل؟

- إنكم الأتراك لا ترون من يخالفكم دينكم صديقًا حقيقيًا، ألسنت على حق؟

- بلى، هذا صحيح، من أين علمت؟

- ألم أكن معكم منذ سنوات؟

- أنت محق.

- كيف يكون المرء مسلمًا يا سيدي؟

- ستنطق الشهادتين يا ميخال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أطال سيد "قايي" النظر بعينين سعيدتين إلى ميخال.

- يا ميخال شتان.

- نعم سيدي.

- ما دمت قد أسلمت، فالأولى لك أن تتخذ اسماً إسلامياً أليس كذلك؟

- معك حق يا سيدي، سمتني اسماً مناسباً.
- إذا رأيته مناسباً، فليكن اسمك الأول عبد الله.
- إن شاء الله، فسأجتهد لأكون عبداً لله يا سيدي؛ شكرًا لك.
- شكرًا لك أيضًا يا مِيخَال، عبد الله مِيخَال غازي.

اجتمع أعيان قبيلة "قايي" تحت قيادة عثمان غازي في تكتية الشيخ أدبالي؛ ويعد أن صلوا المغرب، تناولوا الطعام، وجلس أدبالي على رأس المائدة، وعلى جانبيه عثمان غازي، وكُونْدُوْزْ أَلْب، وآفَقَه قُوْجَه، وغازي عبد الرحمن، وقُونُوْزْ أَلْب.... نهض الـ"قاييون" جميعاً عن المائدة بعد أن قال عثمان غازي: "زادكم الله من فضله"، فقابل أدبالي قول السيد عثمان بقوله "عافاكم الله وعفا عنكم".

ومع رفع المائدة، أخذ أدبالي ينشر للـ"قايين" نفحات من جمال روحه وعلومه.

- انتهى إلى الأبد عصر النبوة ببعثة سيدنا محمد ﷺ، ولا يستطيع أي عبد أن يطلب من الله النبوة بعد، لكن يمكنكم أن تطلبوا من الله عزم الأنبياء، اطلبوا في دعائكم أن تنزل على قلوبكم قطرة من صبر الرسول الكريم وعزمه وشجاعته؛ إذ كان ﷺ حينما خرج لبدري يستشير أصحابه، ويسألهم: "هل هدفنا قافلة قريش القادمة من الشام، أم جيش قريش؟"؛ فأراد بعض الصحابة أن يكون الهدف قافلة قريش؛ لأن القافلة لم تكن على استعداد للحرب، فاستاء الرسول الكريم ﷺ إذ كان يريد أن يغزو جيش قريش الذي يستعد للهجوم عليهم؛ ففهم الصحابة الآخرون

الموقف، فقالوا للرسول ﷺ قولاً كريماً أبدوا به استعدادهم لأية تضحية حتى النهاية.

العدو أمامهم قوي جداً، فكان الرسول ﷺ يدعو: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَنْ تُعْبِدَ فِي الْأَرْضِ"؛ واستجاب الله لهذا الدعاء، فقد هزم المسلمون في بدر بإذن الله جيشاً يفوقهم بثلاثة أضعاف؛ فادعوا أنتم أيضاً، وسيستجيب الله دعاءكم، ولن يخذلكم أمام الجيوش وإن كانت أضعافاً مضاعفة.

في حين كان عثمان غازي يستمع إلى أدبالي، كان ذهنه مشغولاً بأسماء أماكن ستُفتح، فقال لأدبالي:

- أستاذي، هدفنا وغايتنا واضحان، هدفنا تعريف الجميع بالله، وإعلاء كلمته في الأنحاء كافة، ونأمل أن ننال رضاه على ما نفعل.

أدبالي:

- إن شاء الله يا سيدي.

واصل عثمان غازي كلامه:

- في الأوان الأخير لاقت قبيلتنا كثيراً من الأذى والظلم والتكيل، لكننا لم نتقهقر قط؛ ولم يخذلنا ما جرى لنا منذ سنوات طويلة، تعلمنا أن نجري ونتعثر كمهر وليد، وعندما وقعنا وانكفأنا على وجوهنا تعلمنا النهوض كالنسر.

- سيدي الشجاع، أسأل الله ألا يخذلكم وألا يخذل الذين ينتظرون بفارغ الصبر بشائر نصركم.

- آمين يا أستاذي، إننا في حاجة إلى دعائكم دائماً، هل تأذن لنا؟

- تفضل يا سيدي.

ونمضي الأعوام

تتوالى الأعوام كأنما يسابق بعضها بعضاً، وبلغ عثمان غازي السادسة والخمسين من العمر، وقد ابيض شعره ولحيته، وربما فقد قوته القديمة، بل ربما لم يعد يستطيع أن يركب الحصان كما كان في الماضي، لكن قلبه كان مختلفاً تماماً، ففي كل عام يمضي كانت هناك رياح تُشعل شرارة الحماسة في قلبه.

تحدث السيد عثمان في الاجتماع المنعقد مع القادة عن مسيرتهم قائلاً:

- أيها الشجعان والقادة، لقد كنّا عشيرة ذات أربعمئة خيمة جاءت مع والدي أَرْطَغُرُولُ غَازِي بِالْأَمْسِ القريب إلى "سُوغُوت" و"دُومَانِيچ"، وقد قَدَّر لنا الحقّ -تعالى- أن صرنا إمارة بعد عشيرة، صرنا عشرة بعد أن كنّا واحداً، فكبرنا وصرنا مائة بعد أن كنّا عشرة، وصرنا ألفاً بعد أن كنّا مائة، لكنّ هذه الزيادة يجب أن تكون من أجل نشر دين الله، وإلا فإذا بالغنا في قدر أنفسنا في عيوننا، فإننا لن نتمكن ولو من الاستيلاء على ١٠٠/١ من الأراضي التي كُتبت لنا اليوم.

آقچه قُوجَه:

- معك حقّ يا سيدي.

واصل عثمان غازي حديثه:

- أيها الأبطال، إذا كنّا سنستطيع أن نخدم الإسلام، فإنّ هناك معنى للبقاء في الدنيا، وإلا فبطن الأرض خير لنا من ظهرها، حان الآن دور

"بُورْصَة"، يجب أن ترفرف راية الرسول الكريم ﷺ في "بُورْصَة" من الآن فصاعداً.

لاحظت السعادة في عيون القادة جميعهم، لكن أكثرهم حماسة هو عبد الله مِيخَال غازي، فقد كانت هذه أول حملة سيشارك فيها بعد اعتناقه الإسلام وقال في نفسه: "يجب فتح "بُورْصَة"."

شارك عثمان غازي أصدقاءه أفكاره مثلما يفعل دائماً:

- رأيي أن نستولي على القلاع حول "بُورْصَة" قبل محاصرتها، فإننا إذا حاصرنا "بُورْصَة" قبل محاصرة ما حولها ستقع بين نارين - نسأل الله السلامة-.

طلب عبد الله مِيخَال غازي الكلمة وقد ظل صامئاً منذ بداية الاجتماع.
- أحسنت قولاً يا سيدي، فلنستولِ على القلاع بداية من "عُثْمَانْأَلِي (Osmaneli)"، ثم "آقِي حِصَّاز (Akhisar)"، و"كَيَوْه (Geyve)"، و"لَبْلِيَجِي (Leblebici)" ثم نتوجه إلى "بُورْصَة".

- إذا علينا نحن كبار السن مثلي ومثلك - يا مِيخَال - أن نستولي على هذه القلاع، وليقم الآخرون بالاستعداد لحصار "بُورْصَة".

بدأت الجيوش تحت قيادة عثمان غازي ومِيخَال غازي من "عُثْمَانْأَلِي" وواصلوا الفتوحات، وفتحت "عُثْمَانْأَلِي" أولاً، ثم "مَكْجَه (Mekece)".

في السنة التالية كانت هناك حملة إلى ناحية "آقِي حِصَّاز"، وانقسم جيش العشيرة قسمين، كان قسم يسارع مع عثمان غازي في فتح القلاع المحيطة بـ "بُورْصَة"، وأما القسم الآخر فيقوم بالاستعدادات اللازمة لفتح "بُورْصَة".

عندما خرج السيد الشيخ من خيمته، رأى القادة مجتمعين، وقد غار شذقاه، وبدأت حمرة وجنتيه السماوين تتحوّل إلى اللون الأصفر، وأما كتفاه اللذان أثقلت هما السنوات فقد تهدلا، فتحدث إلى الجنود بصوت متعب:

- أيّها الشجعان، إن شاء الله تعالى سيكون طريق حملتنا صوب "آقِ حِصَارْ".

ثم التفت إلى قُوْنُوْزْ أَلْب وكان ينتظره خلفه:

- هل جاء عبد الله مِيخَالْ غازي؟

- سينضمّ إلينا في الطريق يا سيدي.

- حسناً، إذا هيّا أيها الشجعان، بارك الله غزوتكم.

وصلوا إلى أنحاء "آقِ حِصَارْ" بعد مسيرة يومين، وعندما رفض قائد القلعة الاستسلام، بدأ الحصار، فزادهم طول مقاومة القلعة قلقاً، غير أنهم استمروا في الحصار من دون تفكير في الانسحاب، وذات صباح جاء رسول من القلعة وأخبرهم بأنهم مستسلمون.

قال الغازي الشيخ لجنوده بعد الفتح:

- لقد قطعنا الوُتْرَ الحِساسَ لـ "بُورْصَة" بالاستيلاء على "آقِ حِصَارْ"، ومن الآن فصاعداً لم يبقَ أمامنا عائق آخر، فلنبداً بـ "بُورْصَة".

في طريق العودة كان كُوسَه مِيخَالْ صاحب سر عثمان غازي يتحدث معه.

- سيدي ألم يحن بعد وقت الراحة؟

- لا يُصطاد السمك من دون ابتلال السروال يا مِيخَال؛ إذا كانت الغزوة كبيرة فالضرر سيكون كبيراً، لكننا ألقينا صخرة كبيرة في النهر أمامنا باستيلائنا على هذه الأماكن، فلينشئ مَنْ سيأتون بعدنا على هذه الصخرة جسراً، وليسيروا من هناك إلى أهداف أكبر، فلاستيلاء على "آفِي حِصَار" يعني وضع الحبل حول رقبة "بُورْصَة"، وأسأل الله أن يفتحها على أيدينا.

كانت القلاع المحيطة بـ "بُورْصَة" قد سقطت واحدة تلو الأخرى، ولم تبقَ بعدُ قلعة يمكن أن تأتي لنجدتها، وجاء دور "بُورْصَة"، فحاصروها. وفي مشاورة أجريت أثناء الحصار، أوصى كُونْدُورُزُ أَلْب أخاه:

- سيدي، تعلم أنّ "بُورْصَة" ليست مكاناً يمكن أن يستسلم بسهولة مثل القلاع الأخرى؛ وإذا وافقت فلننشئ قلعتين إحداهما عند ينبوع الحارّ والأخرى عند الجبل، وعسى أن يؤثر هذا أكثر في حصار "بُورْصَة".

- هل يرى قادتي الآخرون هذا مناسباً؟

آفِيحَه فُوجَه أكبر الحاضرين سنّاً:

- هذا صحيح يا سيدي؛ لأنّ هذه المدينة تبدو كأنّها ستقاوم كثيراً.

بينما كانت "بُورْصَة" محاصرة كان بناء القلعتين من أجل الحصار يجري على قدم وساق وسط النظرات الحائرة لوالي "بُورْصَة" البيزنطي؛ استمرّ الحصار طويلاً، وكانت "بُورْصَة" تقاوم، وعندما وصل الخبر إلى السيد عثمان بانتهاء بناء قلعتي الحصار، استدعى السيد قُونُوزُ أَلْب وأعطاه تعليماته.

- قُونُوزُ، لقد عينت آفِي تِيْمُور ابن أخي الأوسط سَارُوبَاتُو ڤاشا لقيادة القلعة التي عند ينبوع الحارّ، وعينت بالابانجيق لقيادة القلعة التي عند الجبل، أخبرهما ليأخذتا قواتهما وليستقرا في القلاع، وفقهما الله!

كان عثمان غازي يثَنّ تحت وطأة آلام الشيخوخة، وكانت آلام ركبتيه كأنما تخفق بقلبه، وربما كانت "بُورْصَة" أيضًا قد أتعبته أكثر، وصار الخوف يتملكه شيئًا فشيئًا، أو أنه كان سيرحل من دون الاستيلاء على هذه المدينة، فكلّ مقدر واقع وما باليد حيلة...

هكذا مرت الشهور، وكان يخرج بصعوبة إلى الحصار بسبب ما يعانيه من آلام النقرس، ونظر طويلًا إلى "بُورْصَة"، وقال في نفسه: أيتها المدينة المقاومة، أيتها العشق الزمردّي، يا منية القلب، يا "بُورْصَة" ألن تستسلمي؟ أمر بأن يأتي أولاده، فجاء أوزخان وعلاء الدين وبازارلُو إلى جوار والدهم، وبدأ الغازي الشيخ يتحدث بصوت أوهته السنون، وبينما كان يتحدث كان يشير بيده إلى مكان ما في "بُورْصَة".

- أبنائي، إذا مت فادفوني مكان القبة هناك، هذه وصيتي لكم.

كانت آلام النقرس تنخر في عظام عثمان غازي، وقد أمضى سنوات طويلة من عمره على صهوات الخيل، لكن الآن لم يكن هناك علاج يَمَكِّنه من السير بلّة ركوب الخيل، وعشيت عيناه، أما أذناه فكانتا تنتظران خبرًا سارًا منذ سنوات، ويتمنى لو يأتيه أحد أبنائه مباشرًا: فُتحت "بُورْصَة".

جمع قادته كما يفعل دائمًا، وكانت أعمار الأبطال الذين صحبوه من حرب إلى أخرى قد تقدمت مثله، وكأنما كسا الثلج رأس قُونُوز أَلْب الذي كان شديد سواد الشعر، وكذلك لحية صَامَسَا جَاوُش...، وكان البريق قد خبا في عيني أَقْبَجَه قُوجَه، وُبُح صوت عبد الرحمن غازي، وكانت السنوات تمضي، وتأخذ في طريقها بعض الأشياء.

لقد انضم أعضاء جدد إلى اجتماعاتهم في الزمن الماضي، اعتدل عثمان غازي في مكانه، وقال بصوت متهدّج:

- أيها القادة، أيها الشجعان، لقد عشت معكم حتى الآن ممتطيًا صهوة جوادي، لكنني لست في حال يمكنني أن أكون سيّدًا عليكم أو على الإمارة، وعسى ألا يتوقف بسبب تقدمي في العمر الـ"قاييون" المنتشرون في الأنحاء كافة كنهر يتدفق، أعلم أنّ الماء الراكد يبدأ في التعفن، فمن الآن فصاعدًا سيكون أحد أبنائي الأمير، وسيُسيّر الأمور جميعها، فاجتمعوا فيما بينكم وقرروا من ستنبّونه أميرًا.

غلب البكاء قُوْنُوزُ أَلْب وهو يستمع إلى كلام عثمان غازي، وتجمّد أَيْقُوْثُ أَلْب في مكانه، وكان عبد الله مِيخَالُ غازي يعض شفتيه ليغالب البكاء، ومعنى هذا أنّ حاكمهم وقائدهم الذي قادهم إلى الانتصارات عدّة سنوات يعلن استقالته من منصبه...

اختيار السيد الجديد

اجتمع السادة ومريدو الأخية لاختيار سيد جديد خلفاً لعثمان غازي، وحضر الاجتماع أيضاً أوزخان غازي والسيد علاء الدين والسيد بازارلو، بدأ آقچه قوجه أكبر الحاضرين سناً الحديث:

- حفظ الله سيدنا، لقد قال: إنه لن يستطيع أن يكون أميراً بعد الآن، وأمرنا أن نختار أميراً وأن نخبره، ويجب اختيار السيد الجديد خلال مدة حصار "بوزصة"؛ فلو علم أعداؤنا أننا بلا أمير، فلن يعدونا من الأحياء، ماذا يقول أبناء سيدنا في هذا الأمر؟

كان أصغر الأبناء هو السيد بازارلو، قال مندفعاً إلى الأمام:

- إذا أذنتم، فإنني أريد أن أتحدث أولاً رغم أنني أصغر أبناء عثمان غازي.

- تفضل يا بازارلو.

- إنني أصغر الأسرة، ولا يليق بي أن أكون الأمير، وهناك إخوتي الأكبر، كما أنني لا أرى نفسي مناسباً لهذا المنصب، وأرى أن الأمير يجب أن يكون أخي الأكبر أوزخان أو أخي الأكبر علاء الدين، وإذا كان لي أدنى حق في السيادة، فاشهدوا أنني أنزل عن حقي في هذا الأمر.

تبادل النظرات السيدان أوزخان وعلاء الدين، وبادر الأول قائلاً:

- إذا كان هناك من سيكون أميراً خلفاً لأبي، فأرى أنه أخي علاء

الدين، فماذا يرى هو؟

- اعتقد أنك مخطئ يا أخي، إنك قمت بأكبر الفتوحات في حياة والدي، إذا كان هناك شخص وحيد يمكن أن يرأس بني عثمان فإنه أنت، وأنا أيضاً أفكر مثل بازأزلو، وإذا كان لي أدنى حق في الإمارة، فإنني أتنازل عنها في حضوركم، وأريد أن يكون أخي الأكبر العظيم أوزخان هو الأمير.

فاز السيد أوزخان بالإمارة لا محالة في نهاية حديث أخويه، واستحسن الحضور هذا الأمر.
السيد أوزخان:

- إذا كان هذا قرار كبارنا وإخوتي، فعلينا الامتثال، وأسأل الله ألا يخذلني أو يخذلكم بسبب قرارنا هذا.

علا قول "آمين" في نفس واحد، وقال أوزخان غازي:

- إذا كنت قد أصبحت الأمير، فإنني أريد أن يكون بجانبني أخي علاء الدين وزيراً.

سأل آفچه قوجه السيد علاء الدين عن مطلب السيد الجديد، فقال علاء الدين:

- يعلم سيدي أنني لا أفهم في الإمارة أو الوزارة، وأعمل بالزراعة، وإذا وافقت فأعطني مكاناً من سهل "كيتته" لأبني مزرعة هناك، وعندما يكون هناك حملة فسأتي مسرعاً، وعلاوة على ذلك فسأبادر إذا طلبت مني شيئاً، ويجب أن يوكل الأمر لأهله، فليس من الصحيح أن أتولى الوزارة بينما هناك من هم أجدر مني بها.

دخلت خيمة عثمان غازي مجموعة من كبار "قايي" يرأسهم آفچه قوجه لإبلاغ السيد بقرار الاجتماع، وكان عثمان غازي يرقد متعباً في

أحد أركان الخيمة، وفي أحد الأطراف حوض حديد صغير أمام الإبريق، وفي طرف آخر سيفه.

- سيدي، إذا وافقت، فلقد اخترنا السيد أوزخان أميرًا جديدًا لنا في نهاية مشاورتنا.

- وأنا أوافق، استدعوا أوزخان وهيئة الاجتماع إلى جوارى.

جاءت هيئة الشورى جميعًا إلى جوار عثمان غازي المسن، واجتمع آفجه قوجه، وطوزغوث ألب، والشيخ آخي شمس الدين، وآخي حسن، وجاندارلي قره خليل، ورجال الدولة الآخرون.

- لقد علمت أن ابني أوزخان هو من سيتحمل رفع رايتنا من الآن فصاعدًا، ولعله يكون سببًا في الخير، إن شاء الله سيكتب لي أن أرى عظمة أوزخان في حياتي، وليس لدي شك في استمرار إخلاصكم لابني كما كنتم تخلصون لي، والآن إذا أذنتم، فإنني أريد أن أتحدث مع الأمير الجديد.

خرج الحضور في هدوء، وظل عثمان غازي والسيد أوزخان وحدهما.

وصية عثمان غازي

ظلَّ السيد الشيخ مع ابنه برهة صامتين، وكان خفق الرايات المرفرفة مع الرياح يُسمع من الخارج، كم كان عثمان غازي يحبُّ هذا الصوت، وقد قال فيما مضى: "الدول ذات الرايات الخفاقة والتي تبذل شعوبها قصارى جهدها من أجل رفع راياتها، هي دول يصعب التغلب عليها".

بددت كلمات عثمان غازي الصمت:

"عندي بضع كلمات لك يا أوزخان، ولقد حان الأجل يا بُني، لكنني لست نادماً أو حزيناً، لأنني أترك خلفاً مثلك، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٥/٣)، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سورة الزخمن: ٢٧/٥٥). أنا أنتقل إلى الآخرة متمنياً أن تحقق أهدافك؛ تناول أمور الإسلام أولاً، وخذها دائماً بعين الاعتبار، وحذار أن تنهاون في أمور الجهاد؛ لأنَّ العمل على أداء هذا الفرض يؤدي إلى قوة الدين والدولة، اعمل على نشر ديننا؛ فهذه هي المهمة الأولى للحاكم، طريقنا هو طريق الله ومقصدنا هو نيل رضا الله، ألا إنَّ هدفنا ليس الحرب الصرفة أو فتح العالم؛ وطالما أنك على طريق الله، فستنال فضله، وكلّما بعدت عن الله، فستهلك".

كان التعب قد نال من السيد وهو يتحدث، فتنهّد مرّات، وكان وجهه قد تغصن من شدة ألم يعتصر قدميه، بدأ يتحدث مجدداً:

وصلتُ إلى هذه المكانة وإن لم أستحقّها، ونلت كثيرًا من لطف الله تعالى وإحسانه، فاتبع أنت أيضًا هذا المنهج.

أحمِ دينَ سيدنا محمد ﷺ وأتباعه، ورعاياك الآخرين المطيعين، ومن حاد من سلّاتي عن العدل والحقّ فأسأل الله أن يحرمه من شفاعتنا ﷺ يوم الحشر.

حافظ على العدل والإنصاف دائمًا، ولا تسمح بالظلم، وعندما تبدأ أيّ أمر فالجأ إلى عون الله تعالى؛ احفظ رعيّتك من ظلم الأعداء والظالمين وقهرهم، ولا تظلم أحدًا، وابحث دائمًا عمّا يرضي شعبك وطبّقه في حياتك، واعلم أنّ كسب قلوبهم دائمًا نعمة كبيرة، ولا تنسَ أنّ زلزالاً يهزّ الأرض يهدم المنازل فقط، أمّا الزلزال الذي يهزّ الثقة بالحاكم فيهدم الدول، أستودعكم الله جميعًا“.

كان عثمان غازی يطمئن أنّه يترك إمارته لبطل لن يخذله.

أمّا السيّد أوزخان، فقد تولى هذه المزة مهمًّا كالجبال، حتى إنّ عكف ليل نهار على وضع الخطّط للاستيلاء على "بورصة".

أَدْبَالِي

كانت الأيام تنساب هادئة مثل نهر "سَقَازِيَا"، وقد اشتدَّ المرض على عثمان غازي، حتى صار طريح الفراش، راکدًا مثل نهر يصب في مسبح، بيد أنه يتمنى في هذه اللحظة أن يكون على رأس جيشه على أعتاب "بُوزَصَة"، كم كان يتمنى سماع أصوات: "الله أكبر، الله أكبر"، وصهيل الخيل وأزيز السهام.

ذات يوم علا نواح شديد من الخارج، وكان البكاء يأتي من حوله، حاول الغازي أن يفهم الأمر، فنادى قُونُوزُ أَلْب، فرأى في عيني قُونُوزُ أَلْب حزنًا عظيمًا، غير أنه كان يحاول ألا يشعر عثمان غازي بشيء.

- ماذا حدث يا قُونُوزُ، لماذا هذا البكاء؟

- لا شيء يا سيدي، لا شيء.

- قُونُوزُ، منذ متى أنت بجاني؟

- أعرفك سيّدًا منذ نعومة أظفاري.

- إذا لماذا تكذب؟

أطرق قُونُوزُ أَلْب، ومسح دمعة سالت من عينيه إلى شاربه الأبيض، لكنَّ عثمان غازي أصرَّ قائلاً:

- ماذا حدث أم أن هناك خبرًا مؤلمًا وأنت تخفيه عني؟

نظر قُونُوزُ أَلْب أمامه ولم يجب:

- أخبرني يا قُونُوز أَلْب ماذا حدث؟

- هناك خبر مؤلم يا سيدي.

- ماذا؟

- أَدْبَالِي...

- ماذا!!

- انتقل حضرة أَدْبَالِي البارحة إلى رحمة الله يا سيدي.

استوى عثمان غازي، واسترجع، وسالت من عينيه دمعتان، وكانت الدموع تسيل بخفة، وتنساب لتشق سبيلها في وجه حفرت فيه السنون أودية.

- أستاذي...، أستاذي العزيز أَدْبَالِي...

ظلّ على هذه الحال شاردًا برهة، ثم انتبه على صوت قُونُوز أَلْب.

- سيدي، أأمر بشيء؟

- نعم يا قُونُوز أَلْب، أعدوا حصاني، سأذهب إلى "بَلَجِيك" لحضور مراسم الجنازة.

- لكنك يا سيدي مريض جدًا، كيف ستركب الحصان في هذه الحال؟

- أتريد أن تمنعني عن القيام بواجبي الأخير تجاه أستاذي؟

- كلا يا سيدي.

- هيا أسرع إذا.

وفي "بَلَجِيك" فاضت وسالت الدموع، وأقيمت صلاة الجنازة على أَدْبَالِي وسط تكبيرات ودعاء الآلاف من طلابه، وصلى عثمان غازي

في الصفّ الأول واقفاً على قدميه بصعوبة، وبعد الصلاة سأل الإمام المشيئين:

- أتسامحون الميت؟

فردّوا بصوت يغلب البكاء:

- نسامحه!

ووري أذنبالي الثرى مثل كلّ فانٍ، وظلّ عثمان غازي على قبر أذنبالي ساعات بظهره المحني وركبتيه اللتين تثنان بالآلام لا تحتمل الوقوف، وهو يرنو إلى القبر طويلاً.

وضع يده على تراب القبر، وقال: "أستاذي العزيز، إذا كان الـ"قاييون" قد صاروا من عشيرة إلى إمارة، فلك أكبر نصيب في هذا، فلتسامحنا، فلن ننسأك أنا ومَن يأتي من بعدي".

خيم الحزن على "بني شهيز"، لكنّ الحظّ الأعظم منه كان من نصيب السيّد ملّحونّ التي فقدت والدها، وحاول عثمان غازي أن يواسي شريكة حياته، وكانت جنازة والدها قد أذبلت وجهها، فقصرت به الشيخوخة عن ذلك، ثم جلس عثمان غازي بجانب رفيقة دربه:

- البقاء لله يا ملّحونّ، عسى الله أن يجعل أستاذي شفيعاً لنا جميعاً!

- آمين يا عثمان، آمين...

- أتريدون مني شيئاً؟

- هل يمكن أن تدفني بجانب أبي إذا متُّ يا عثمان؟

- لمّ تقولين هذا يا ملّحونّ أم إنك أيضاً ستركبني هنا وترحلين؟

- قل، هل يمكن أن تدفني هناك؟

- حسناً يا عزيزتي، على كل حال سيموت عثمان أيضاً ذات يوم.

صارت السيدة مَلْحُونٌ مثل وردة ذابلة، فلم تكن تقرب الطعام أو الشراب، فضعت وأنهكت، ولازمت الفراش بسبب آلامها، وكانت خائفة القوى، أحضروا الأطباء من المدن المجاورة، بيد أنهم لم يجدوا لها دواء، وكانت مَلْحُونٌ تفنى مثل قطعة ثلج تذوب قطرة قطرة، وكان عثمان غازي يريد أن يبقى بجانبها غير آبه بمرضه.

اجتمعت النساء حول السيدة مَلْحُونٌ، كنَّ يقرآن القرآن ويدعون لها، ويقمن أيضاً بإعداد العلاج المصنوع من ألف زهرة وعشب، فتحت السيدة مَلْحُونٌ عينيها برهة، فدنا منها عثمان غازي على الفور.

- مَلْحُونٌ، أتريدني مني شيئاً؟

- عثمان...، إذا متُّ قبلك فستدفتني بجانب أبي في "بَلْجِيك"، أليس

كذلك؟

- ما هذا الحديث؟ اصبري قليلاً ستحسنين إن شاء الله.

- هل تحقّق لي آخر أمنياتي؟

- حسناً يا عزيزتي، لا تقلقي.

عند أذان الفجر ذات صباح دَوّت في "يَنِي شَهِيْز" صرخة لإحدى مرافقات السيدة مَلْحُونٌ.

- أدركونا، لقد ماتت السيدة مَلْحُونٌ!

لم يكن قد مرَّ على رحيل أدبالي ثلاثة أشهر، وها هي السيدة مَلْحُونٌ قد لحقت بوالدها إلى العالم الأبدى.

صار عثمان غازي وحيداً الآن، كأنَّ قلبه سيتوقف، كان يقف في جنازة السيدة مَلْحُونْ بصعوبة على قدمين يعتصرهما ألم لا يحتمل، ويدعو لها سرّاً...، مَلْحُونْ معشوقته في شبابه، مَلْحُونْ والدة أبنائه، مَلْحُونْ أكبر معين له، لم تعد موجودة بعد.

كان قد مضى وقت طويل منذ أن ذبلت ألوان الدنيا الفانية جميعها في عيني عثمان غازي، ولم يعد إلا اللونان الأبيض والأسود، لكنَّ الحياة فقدت لونها الأبيض أيضاً مع مَلْحُونْ، وبقي فقط اللون الأسود في عينيه، كأنما كان التراب الملقى على قبر السيدة مَلْحُونْ في "بَلَجِيك" يلقى على عثمان غازي، فأظلم كلَّ شيء حوله.

الوداع

أدرك عثمان غازي أنَّ موعد رحيله يحين شيئًا فشيئًا، وقد مضت سنوات منذ حصار الجيش العثماني "بُورْصَة"، ولم تصل إليه أخبار سارة عنها، وكان يسأل أُوْرْخَانْ غازي عند قدومه كلَّ مرَّة إلى "بُني شَهِيرَ":

- ماذا حدث يا أُوْرْخَانْ؟ ما حال الحصار؟

- "بُورْصَة" تقاوم يا أبي، لكنني لا أعلم إلى متى تقاوم.

- اصبر، وواصل الحصار يا بُني؛ عندما كنتُ في مثل عمرك، كان السيّد أدْبَالِي ﷺ يقول لي: "يجب أن يتعلم السيّد الصبر"، وأنا أقولها لك أيضًا.

- ساعدّه أمرًا يا أبي إن شاء الله، فسأحمل لك خبرًا سائرًا ذات يوم، رجاء لا تحرمنا من دعائك.

- إن شاء الله يا بُني.

قَبْلَ أُوْرْخَانْ غازي يدي والده وخرج من الخيمة، رنا عثمان غازي ولده من الخلف؛ كان يتذكّر يوم مولده كأنّه بالأمس القريب، لقد صار الآن سيّدًا عظيمًا، تذكر مَلْحُونْ، كم كانت تحبُّ أُوْرْخَانْ، وكيف كانت تنظر إليه ليل نهار، سألت دمة من عينيه، لا مَلْحُونْ بعد اليوم، كان في الحياة طريق الفراش، والزمن يأبى أن يمرّ، وصار تعاقب الملوك عذابًا له، لم يعد عثمان غازي يستطيع النهوض من الفراش، وقد تورمت ركبته

فرح الجميع، كان سيدهم قد بدأ يتحسن.

شرب عثمان غازي الماء، وسأل عن حال الجيش، وماذا يفعلون في "بُورْصَة"، وعن أحوال قادته، فأجابوه؛ استمع إلى الإجابات جيّدًا، وكلّما رأوا عثمان غازي بحال جيّد، كانوا يجيئون على أسئلته بلهفة أكبر.

استلقى السيّد مجددًا على سريره، وظنّ الجميع أنّه نائم، بيد أنّه كان قد نطق الشهادتين وأسلم روحه منذ وقت طويل، عمّ الأئين "يَنِي شَهِيْر" مجددًا، وتردد صوت في الأجواء: "وَدَّع عثمان غازي هذه الحياة الفانية وأسلم روحه".

وضعوا جسده على عربة حصانه، وذهبوا به إلى "بُورْصَة" ودفنوه في هضبة أوصى بها، دفن عثمان غازي في "بُورْصَة" كما البذرة، لكي يصبح نواة لشجرة شاهدها في رؤياه فيما مضى!

١- التراجع الكاذب.

٢- الخداع والكمين.

فكان الجيش ينفصل في لحظة الحرب إلى ثلاثة أفرع: الوسط والميمنة والميسرة؛ فتهاجم قوات الوسط العدو، وتراجع إلى الوراء وكأنها تفر من أرض المعركة. وعلى حين تقوم بهذا تواصل الحرب بإطلاق السهام وهي على ظهر الخيل. وبهذه الطريقة كان العدو الذي يتبع الجنود المنسحبين من الخلف ينسحب إلى المكان المنسوب فيه الكمين بين ميسرة الجيش وميمته، ويتم القضاء عليه حيث يشدد عليه الخناق.

وكانت هذه خطة معروفة بتنانجها القاطعة برغم صعوبة تنفيذها حيث كان الجيش العثماني يطبقها ويستطيع بها أن يهزم بقواته القليلة أعداء ذوي عدد كبير. وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه من أفضل القادة الذين طبقوا هذه الاستراتيجية الحربية في معركة الولجة، (٦٣٣م)، وكذلك ألب أرسلان في معركة ملاذكرد (*Malazgirt*)، وأيضاً السلطان سليمان القانوني في معركة موهاج (*Mohaç*).

(٣٤) جبل "دينبوز" (*Dinboz*): جبل يقع في شرق مركز "يني شهير" في "بورصة".

(٣٥) إيزميت (*Izmit*): مركز محافظة "قوجه ألي" (*Kocaeli*)، وتقع في نهاية الخليج الممتد في اليابسة بـ ٥٠ كيلو متراً شرق بحر مرمرة.

ونتيجة لبداية الإمارة العثمانية التوسع في شمال غرب الأناضول فقد امتدت غزوات العثمانيين حتى "إزميت" أيضاً. وفي عام ١٣٢٩م دارت حرب بين أورخان بك والإمبراطور أندرونيكوس الثالث انتصر فيها أورخان بك. وإن كان الإمبراطور الذي تعرض لهزيمة نكراء استطاع أن يخلص "إزميت" شريطة دفعه الخراج (١٣٣٣م) إلا أنها انتقلت لاحقاً إلى سيادة العثمانيين، وأوكلت إدارتها لسليمان باشا. وحُولت بعض الكنائس التي فيها إلى جوامع، وجعلت إحداها مدرسة.

المصادر

Âşık Paşa oğlu Tarihi, ATISIZ, Milli Eğitim Yayınları, 1990.

تاريخ "أشك باشا أوغلو"، وزارة التعليم التركية، ١٩٩٠م.

Bu Mülkün Sultanları, Necdet Sakaoğlu, Oğlak Yayınları, 2004.

سلاطين هذا المُلْك، نجدة سقا أغلو، دار نشر "أوغلاق"، ٢٠٠٤م.

Hadisât, Nişancı Mehmed Paşa, (Sadeleştiren: Enver Yaşarbaş), Kamer Neşriyat, İstanbul 1983.

الحوادث، نِشَانْجِي محمد باشا، دار نشر "القمر"، إسطنبول، ١٩٨٣م.

Kayı, Prof. Dr. Ahmet Şimşirgil, Tarih Düşünce Kitapları, 2003.

عشيرة "قايي"، أ. د. أحمد شِمَشِيرْجِيل، دار نشر "الكتب الفكرية والتاريخية"، ٢٠٠٣م.

Osmanlı Devletinin Kuruluşu, Prof. Dr. Fuad Köprülü, TTK Yayınları, 1991.

نشأة الدولة العثمانية، أ. د. فُؤَاد كُؤْپُرُولُ، دار نشر "مؤسسة التاريخ التركية الحكومية"، ١٩٩١م.

Osmanlı Devleti Tarihi (c. I), Editör: Prof. Dr. Ekmelettin İhsanoğlu, Zaman Kitap, 1999.

تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، المحرر: أكمل الدين إحسان أوغلو، دار نشر "جريدة زمان"، ١٩٩٩م.

Osmanlı İmparatorluğu, Klâsik Çağ (1300-1600), Prof. Dr. Halil İnalcık, (Çeviren: Ruşen Sezer) YKY, İstanbul, Ağustos 2004.

الإمبراطورية العثمانية، العهد الكِلَاسِيكِي (١٣٠٠ - ١٦٠٠م)، أ. د. حَلِيل إِنَالْجِيك، ترجمة: روشن سزر، دار نشر "YKY"، إسطنبول، ٢٠٠٤م.

Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, M. Ziya Pakalın, MEB Yayınları 1993.

معجم المصطلحات والتعبيرات العثمانية، محمد ضياء باكْأَلِين، دار نشر "وزارة التعليم التركية"، ١٩٩٣م.

Osmanlı Tarihi (c. I), Ord. Prof. Dr. İ. Hakkı Uzun çarşı, TTK Yayınları, 1988

التاريخ العثماني، المجلد الأول، أ. د. إسماعيل حقي أوزون جازيشلي، دار نشر "مؤسسة التاريخ التركية الحكومية"، ١٩٨٨ م.

Sohbet-i Cânan, M. Fethullah GÜLEN, Gazeteciler ve Yazarlar Vakfı Yayınları, 2004.

صحبة الحبيب، محمد فتح الله كولن، دار نشر "وقف الصحفيين والكتاب"، ٢٠٠٤ م.

Tacü'l-Tevarih (c. I), Hoca Sadettin Efendi (Hazırlayan: İsmet Parmaksızoglu), Kültür Bakanlığı Yayınları, 1992.

تاج التواريخ، خوجا سعد الدين أفندي، دار نشر "وزارة الثقافة التركية"، ١٩٩٢ م.

Türk Cihân Hâkimiyeti Mefkûresi Tarihi, Prof. Dr. Osman Turan, Ötüken Yayınları, 2003.

تاريخ هيمنة الأتراك على العالم، أ. د. عثمان طوران، دار نشر "أوتوكن"، ٢٠٠٣ م.

Türk Millî Kültürü, Prof. Dr. İbrahim Kafesoğlu, Ötüken Yayınları, İstanbul, Eylül 2004.

الثقافة التركية القومية، أ. د. إبراهيم قافس أوغلو، دار نشر "أوتوكن"، ٢٠٠٤ م.